

قلبك لئلا يهزل

ديوان شعري

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي



٨١١ / ٩٠٥٦٣

م ٥٦٩

القاضي ، رافد حميد فرج

قلب الإعلام / رافد حميد فرج القاضي

ط ١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٦ .

٥١٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

١ - الشعر العربي - العراق - أ - العنوان .

رقم الإيداع

٢٠٢٦ / ٢٠٢٦

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

ISBN : 978-9922-5580-5-9

هاتف: ٠٧٨٧١٩٧٨٥٢٠ / ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

قلبُ الأعلامِ

الدكتور سعيد المسعودي
الأعلامي الذي حمل العراق
إلى العالم

ديوان شعري
رأف حميد فرج القاضي

2026

على نبضه تجلى العراق مُبَجَّلًا

فصارَ صدى صوتٍ يُعانقُ مجدا

يُسافرُ في الآفاقِ حامِلَ حُلْمِهِ

ويزرعُ في عَيْنِ البعيدينَ مَوْعِدًا

إذا قال... قامَ الحرفُ يَحْمِلُ موطنًا

ويكتبُ في عَيْنِ الزمانِ تَالِقًا

وذاك سَعْدُ المسعوديِّ إن نادى صَدَاهُ

توهجَ فصارَ الكونُ بالاسمِ مُشْهَدًا

كأنَّ العراقَ بهِ تكلَّمَ كُلُّهُ

فصارَ لسانًا للضيَاءِ مُغَرِّدًا

الإهداء

إلى ...العراقِ الذي كان البدايةً والنهايةً، والحضورَ الذي لا
يُغيب في كل صوتٍ صادقٍ، كنبضٍ يسكن اللغةَ، إذا
نُطقَ اسمه ارتجف المعنى قبل الحروفِ...

إلى ...كلِّ مَنْ آمَنَ بأنَّ الكلمةَ أمانةٌ، وأنَّ الإعلامَ رسالةٌ لا
تُختزل في مهنةٍ، فالوطنُ صوتٌ يجب أن يصلَ إلى العالمِ مهما
امتدَّت المسافاتُ الصامتةُ...

إلى ...الدكتور سعد جعفر عبد عون المسعودي، الإعلاميِّ الذي
جعل من الحقيقةِ صوتاً لا ينكسرُ، فإذا تكلمَ صار الصوتُ
وطناً، وإذا كتبَ صارت الكلمةُ موقفاً...

إليك... يا قلب الإعلام، يا مَنْ حملَ العراقَ إلى العالمِ بروحٍ

لا تنحني أُهديك ديوانَ " قلبُ الإعلام " نبضُ منك وإليك...

قلبُ الإعلام

ابتداءً من اللحظة الأولى لم تكن الحكاية صوتاً، بل كانت وطناً
يبحث عن صوتٍ؛ من الحرف حين يشتعل، ومن الكلمة حين
ترفض أن تكونَ عابرةً ومن اللغة وهي تنقبُ في أعماقها عن
صوتٍ يليقُ بالخلود... ففي زمنٍ لم تعد الكلمة بريئةً، ولم يعد
الصوت مجردَ صدىً وفي عالمٍ اختلطت فيه الحقيقة بالضجيج
حتى كادت تضيع، لم يعد يكفي أن نتكلم... بل صار لازماً أن
نعيدَ تعريفَ معنى أن يكونَ للصوت قيمةً وللکلمة مسؤولية...
تبدأ هذه الصفحات ليس كمدحٍ عابرٍ، ولا انخيازٍ لاسمٍ ترفعه
صلة دمٍ بل انخيازٌ للحقيقة حين تختارُ أن تتجسدَ في إنسانٍ

وللإبداع حين يتحولُ قدراً لا يمكنُ تجاهله ، هنا... لا نكتبُ
عن رجلٍ بل عن ظاهرةٍ تشكّلت من صبرِ المدن، ومن وجعِ
البدايات، ومن إيمانٍ لم ينكسر رغم كلِّ ما مرَّ عليه من ريحٍ
وعتمةٍ " قلبُ الإعلام " ليس عنواناً عابراً، بل هو توصيفٌ دقيقٌ
لرحلةٍ امتزجَ فيها الصوتُ بالقضية والحضورُ بالانتماء والظهورُ
بالحقيقة؛ إنه ديوانٌ يُكتبُ من الداخلِ حيث لا تُرى الكاميراتُ
ولا تُسمعُ التصفیقاتُ، بل حين يقفُ الإنسانُ وحيداً أمام سؤالٍ
واحدٍ: هل ما سنقولُه يليقُ بالحقيقة...؟

الإعلاميُّ الدكتور سعد جعفر عبد عون المسعودي... ذلك
الاسمُ الذي لم يكن يوماً مجردَ حضورٍ إعلاميٍّ، بل جسراً ممتداً
بين العراقِ والعالمِ وصوتاً حملَ العراقَ لا كخبيرٍ عابرٍ بل كقضيةٍ

حيّة، وكأنّ العراق لم يكن في حنجرته وطناً فحسب، بل كان قدراً
يتكلّم به، ويكتبه، ويعيشه، فلم يكن الطريق إليه معبداً بالتصفيق
بل كان مرصوفاً بالتعب، بالأسئلة بالبحث عن معنى الكلمة حين
تفقد معناها... فأعاد إليها هيبتها وأعاد للصوت مسؤوليتها
حتى صار الإعلام عنده ليس مهنة بل موقفاً من بغداد حيث
تبدأ الحكايات عادةً من الألم، ومن ضفاف دجلة حيث تتكوّن
الذاكرة من عمق لا يُرى؛ تشكلت البذرة الأولى لهذا الصوت
الذي تعلم مبكراً أنّ الكلمة ليست زينة بل موقف، وأنّ الإعلام
ليس حرفة تُمارس بل امتحان يُعاش كبر الحلم ليس كطموح
شخصي، بل كمسؤولية تتسع حتى صار الصوت يبحث عن
مساحة تليق به، وحين وصل إلى العالم، لم يذهب ليكون رقماً

ولا صورةً أخرى في زحام الوجوه بل ذهب وهو يحمل العراق لا
كشعار يُقال، بل كحضورٍ لا يغيب في كلّ ظهورٍ؛ فكان هناك
وطنٌ في كلّ جملةٍ وتاريخٌ يُقرأ في كلّ صمتٍ محسوبٍ، وإدراكٌ
يعرفُ: متى يتكلمُ...؟

ومتى يتركُ للصمتِ أن يقولَ...؟

هذا الديوانُ ليس سيرةً تقليديةً، ولا محاولةً لتأريخٍ مسيرةٍ، بل
هو قراءةٌ عميقةٌ في معنى أن يكونَ للصوتِ جذورٌ، وكيف
يمكنُ للكلمةِ أن تتحولَ من خبرٍ عابرٍ إلى أثرٍ لا يُمحى...؟

إنه عن الإعلام... لكن ليس الإعلام الذي نعرفه، بل الإعلام
حين يكونُ ضميراً، حين يتحولُ من وسيلةٍ إلى رسالةٍ، ومن نقلٍ
إلى موقفٍ ومن مهنةٍ إلى هويةٍ، في هذه الصفحات، لا نقرأ عن

تجربة، بل نلامسُ جوهرَ الإعلام حين يكونُ قلباً لا أداةً، وجسراً
لا منصةً، وشهادةً لا عرضاً.

وهنا تحديداً تفتحُ حكايتي مع هذا الديوان الذي لم أكتب
قصائده لأنّ بيني وبين الإعلاميِّ الدكتور سعد المسعودي قرابةً
دم؛ فصلهُ الدم قد تمنحُ القربَ لكنها لا تصنعُ الدهشة، ولا
تفرضُ على الحروفِ أن تنحني احتراماً... إني كتبتُ حروفي لأنّ
الإبداعَ حين يمرُّ أمامي لا يمكنُ أن أتجاهله، ولأنّ الفخرَ حين
يكونُ حقيقياً لا يحتاجُ إلى نسبٍ ليثبتَ نفسه، ولأنّ الكلمةَ إن لم
تُكتب في حضرة مَنْ يستحقُّها تخونُ معناها لقد كتبتُ لأنني
رأيتُ في هذه التجربة ما يتجاوزُ الشخصَ إلى الرمزِ وما يتجاوزُ
السيرةَ إلى الدلالةِ إذ رأيتُ كيف يمكنُ لإنسانٍ أن يحملَ وطناً

كاملاً في صوته...؟

وأن يجعل من الإعلام نافذة ليس للخبر بل للهوية ، وإنَّ أول ما يلفت القارئ في هذا الديوان هو تلك الكثافة الشعورية العالية التي لا تعتمد على الزخرفة بل على صدق التجربة نفسها؛ فاللغة هنا ليست فائضة لكنها مشحونة، وليست متكلفة لكنها عميقة تحمل داخلها طبقات متعددة من المعنى، أما الصوت فلا يظهر بوصفه موضوعاً، بل كبنية داخلية تتشكل منها النصوص، كإيقاع حيّ ونبض يتردّد بين السطور حيث تكمن الحنكة أن تكون حاضراً دون أن تفقد ذاتك، وتكون واضحاً دون أن تفقد عمقك، وتقول الحقيقة حتى حين لا تكون سهلة، بالتالي، فإنَّ هذا الديوان يقوم على ثلاث ركائز: الوطن بوصفه حضوراً داخلياً

لا يغيبُ، والصوتُ بوصفه مسؤوليّة لا امتيازاً، والحقيقةُ بوصفها
اختباراً لا خياراً ، والعراقُ هنا ليس جغرافيا بل معنى يتجاوزُ
الخرائطَ وليس مكاناً بل ذاكرةً، وليس خبراً بل روحٌ تمرُّ في كلِّ
كلمةٍ، وهنا نكتشفُ أنّ الإعلاميّ ليس ناقلاً بل هو فاعلٌ
أخلاقيّ، وأنّ الكلمةَ ليست وسيلةً بل موقفٌ، وأنّ الصوتَ حين
يكونُ صادقاً لا يحتاجُ أن يعلو بل أن يكونَ حقيقياً ، هذا
الديوانُ ليس تمجيداً، بل مواجهةً؛ مواجهةً مع اللغةِ كي ترتقي
ومع المعنى كي لا يكونَ عادياً، ومع الحرفِ كي يستحقَّ أن
يُكتبَ، إنه عملٌ يُكتبُ بالخيرِ لكنه مشبّع بما هو أعمقُ من
الخيرِ، هو التجربةُ بالتعبِ بالليالي التي كان فيها الخيرُ أثقلَ من أن
يُقالَ، وباللحظاتِ التي كان فيها الصمتُ أصعبَ من الكلامِ

وفي كل ذلك، بقي "قلب الإعلام" الذي لا يخفق للظهور بل
للحقيقة، ولا يبحث عن الانتشار بل عن الأثر، ولا ينتمي إلى
شاشة بل إلى وطن أيها القارئ الكريم، أنت لا تدخل هنا إلى
ديوان عابر، بل إلى مساحة تتقاطع فيها الكلمة مع الحقيقة،
والشعر مع السيرة والدهشة مع الاعتراف فإن قرأت هذا الديوان
فلا تقرأه ككلمات بل كرحلة، ولا تتابعه كسيرة بل اسمعه كصوت
يتشكل أمامك صفحة بعد صفحة حتى تصل إلى اللحظة التي لا
تنتهي فيها الحكاية بل تبدأ؛ لأن ما كُتب في الصفحات لم يكن
سرداً يُغلق بل أثراً يمتد، فالكلمات حين تُكتب بصدق لا تُغادر
صاحبها بل تبقى فيه، تتردد كصدى لا يخفت وتشكل كذاكرة
لا تُمحى وهذا الديوان لم يكن مجرد نصوص تُقرأ، بل كان عبوراً

إلى معنى أعمق، إلى تلك المساحة التي يلتقي فيها الصوت
بضميره والحرف بقدره، والإنسان بوطنه ، ولم تكن غايتي إنهاء
الحكاية، بل أن أضعها في موضعها الصحيح وهو القلب؛ لأنَّ ما
لا يُكتب من القلب لا يصل، وما لا يحمل الحقيقة لا يبقى...
وهنا، بعد كلِّ هذا الامتداد، لا يبقى إلا اليقين؛ فالأسماء قد
تذكر لكنَّ القليل منها يُخلد، والأصوات قد تُسمع لكنَّ القليل
منها يُؤثّر، والطريق قد يمضي لكنَّ الأثر وحده هو الذي يبقى
فالإعلاميُّ الدكتور سعد المسعودي لم يكن مجرد صوتٍ عابرٍ في
الهواء، بل كان أثراً استقرَّ، ولم يكن حضوراً مؤقتاً، بل معنىً امتدَّ
حتى صارَ جزءاً من ذاكرةٍ لا تُنسى، وهذا ليس نهاية القول فيه
بل بدايته في وجدانٍ من يقرأه؛ فإذا أغلقت هذه الصفحات فلا

تظنّ أنّ الحكاية انتهت، بل تأكد أنّها بدأت داخلَك، وهنا
يتحقّق البقاء حيث تنتهي الكلمات ويبدأ الأثر...

نُبوءَةُ الْقَدْرِ

لم يكنِ البدءُ صوتاً

بل صمتاً

يختمُ في قلبِ الغيبِ...

كأنَّ الوجودَ

يكتبُ ملامحَهُ الأولى

بحبرٍ لا يُرى...

زمنٌ لا يُقاسُ

ولا أسماءُ تُنادى

كانَ سرُّ صغيرٍ

ينامُ في كفِّ القدرِ...

يشبهُ بذراً لكنهُ

يحملُ غابةً من المعنى...

يا لدهشةِ البداياتِ

حينَ لا تُرى

لكنها تكونُ أكثرَ حضوراً

من كلِّ ما سيأتي...

في بغدادَ، حينَ كانَ التعبُ

يرتّبُ أيامه على صبرٍ طويلٍ

وكانَ التاريخُ

يُعيدُ نفسهُ

كي لا يُنسى...

كانت المدينةُ

تعرفُ أكثرَ مما تقولُ

وتُخفي في أزقتها أسراراً

لا تُعطى إلا لمن خلَقوا

من طينها العميق...

كانَ الهواءُ يمرُّ

بخشوعٍ غريبٍ

كأنَّه يخافُ

أن يوقظَ شيئاً

يتكوَّنُ في العتمة...

حتى يصبحَ الاسمُ

امتلاءً كاملاً

بصوتٍ قادمٍ...

من قلب المعنى

كما أنَّ دجلةَ

لم يكن ماءً

بل ذاكرةً سائلةً

تحمِلُ وجوهاً

وأحلاماً مؤجلةً

وكانَ يعرفُ

أنَّ بعضَ الأبناءِ

لا يشربون منه

بل يشربون الحكاية...

وأنت كنت واحداً منهم

يا من وُلدت

قبل أن تولد...

يا سرَّ البذرِ

كيف احتملت

كلَّ هذا الضوءِ

وبقيت خفياً...؟

كيف تعلّمت

أن تكون صوتاً

قبل أن تمتلك حنجرَةً...؟

أُمُّكَ لم تكن

تحمِلُكَ وحدَكَ

كانت تحمِلُ

وطناً يتشكّلُ

في صمتٍ...

وكان قلبُها يتّسعُ لكَ

كما تتّسعُ السماءُ لنجمٍ

لم يُعلنَ بعدُ...

وأبوكَ كان يرى

في السكونِ

إشارة لا تفهم...

كأنَّ الجدرانَ

تنتظرُ معه

أن يتحوَّلَ الغيبُ

إلى اسمٍ...

قبلَ أن تأتي

مررتَ على كربلاءَ

كطيفٍ يعرفُ الطريقَ

فشربتَ من الحزنِ نوراً

ومن الدمعِ بصيرةً...

فعرفتَ أنَّ الصوتَ

ليس نبرةً بل موقفٌ...

ومررتَ على بغدادٍ كأغنيةٍ

تتدرَّبُ على الحياةِ

فحملتَ من شوارعها

نبضَ الذينَ لا ينكسرون...

كنتَ في الغيبِ

تسألُ:

كيفَ يكونُ

الصوتُ وطناً...؟

وكيفَ تُختصرُ البلادُ

في كلمةٍ...؟

وكيفَ يتحوّل الإنسانُ

إلى صدىٍّ لا ينتهي...؟

وتقولُ:

هذا أنا

وهذا كلُّ ما بقي...

كانتِ القصيدةُ

تبحثُ عنك

في دفاترِ الليلِ

وتقولُ:

متى يأتي

من يُقذني

من صمتِ الورقِ...؟

كنتَ تنمو

كفكرةٍ عنيدةٍ

وضوءٍ يتسلَّلُ

عبرَ المسافاتِ

كقدرٍ لا يُؤجِّلُ...

حتى الهواءُ

كان يُهذَّبُ نَفْسَهُ

كي لا يُربكَ حلماً

يتعلَّمُ كيفَ يصبحُ اسماً...؟

وحينَ تعبَ الانتظارُ

وانحنى الزمنُ

ليفتحَ بابَهُ الأولَ...

جئتَ ليس كولدٍ عابِرٍ

بل كحقيقةٍ تنفجرُ

كأنَّ الستارَ

أُزيحَ عن سرِّ

طالَ صمتهُ...

وتحوّلَ سرُّ البدرِ

إلى اسمٍ...

واسمُكَ لم يكن حروفاً

بل كانَ طريقاً

يمشي على الأرضِ

ويترك أثراً

في القلوبِ...

يا سعدُ...

يا من خرجتَ

من العتمةِ

تحملُ ضوءَها معكَ

لم تكنَ جديداً

كنتَ ذلكَ الصوتَ

الذي تدرّبَ طويلاً

في الغيبِ...

صرتَ اسماً في الضوء

لكنَّ الضوءَ لم يصنعكَ

أنتَ الذي

علَّمتهُ كيفَ يلمعُ...؟

حينَ تتكلَّمُ

لا يُسمعُ صوتكَ

بل يُسمعُ العراقُ

بكلِّ ما فيه...

وحينَ تصمتُ

يصيرُ الصمتُ

لغةً أخرى

لا يفهمها إلا الذين

عرفوا ثقلَ المعنى...

أنتَ لا تحملُ الوطنَ

بل الوطنُ يتكئُ عليك...

تمضي وفي خُطَاكَ

شيءٌ من دجلة والفراتِ

وشيءٌ من كربلاءَ

وشيءٌ من بغدادَ

كلّها تتكلّمُ بك...

وهكذا اكتملت...

ببدايةٍ واضحةٍ...

سرّاً صارَ اسماً

وبذرةً صارت ضوءاً...

وما زالَ فيكَ

الغيبُ الأولُ ينبضُ

وما زالَ الطريقُ

يكتبُ نفسهُ بصوتك...

وما يزالُ العراقُ

كلما احتاجَ أن يصغي

لصوتٍ يشبهه

يبحثُ عنك...

مِلَادُ الْمَعْنَى

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ

حِينَ كَانَ الْفَجْرُ

يَتَهَيَّأُ لَوْلَادَتِهِ...

وَكَانَتْ السَّمَاءُ

تُخْفِي فِي رَحِمِ الْغَيْمِ

نُورًا لَا يُرَى

وُلِدَ الْغَرْسُ...

لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ

غَرْسًا عَابِرًا

كَانَ وَعْداً يَتَجَذَّرُ

فِي عَمَقِ الْأَرْضِ...

كَانَ بَشَارَةً

تَتَقَدَّمُ نَحْوَ الْحَيَاةِ...

صَرَخَتْ أُمُّهُ

لَيْسَ مِنَ أَلَمِ الْوِلَادَةِ

بَلْ مِنَ دَهْشَةِ الْقَلْبِ

حِينَ رَأَتْ أَنَّ اللَّهَ

قَدْ كَتَبَ لَهَا نَبْضاً

يَمْشِي خَارِجَ صَدْرِهَا...

وَأَبُوهُ وَقَفَ كَأَنَّهُ

يُمسِكُ بالدنيا كُلِّها

وَحِينَ حَمَلُهُ

ارْتَجَفَ الْأَسْمُ

قَبْلَ أَنْ يُقَالَ ...

قالوا:

ماذا نسمِّيه...؟

فَنَظَرَ الْأَبُ

إِلَى وَجْهِ مَوْلُودِهِ

كَأَنَّهُ يَقْرَأُ

مَا كُتِبَ فِيهِ

قَبْلَ أَنْ يُولَدَ ...

ثُمَّ قَالَ بِثِقَةِ الدَّعَاءِ:

سَعْدٌ...

جَاءَ وَالسَّعَادَةُ

تَمْشِي مَعَهُ...

وَلَأَنَّ وَجْهَهُ

كَانَ يَبْتَاسُ

كَأَنَّهُ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ

وَلَأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ

أَنْ يُطْمِئِنَّ قَلْبًا

سَمَّاهُ سَعْدًا...

يَا سَعْدُ...

لم يكن اسمك

صوتاً يُنادى

بل كانَ قدراً يُعاشُ

ودعاءً سبقَ خطاك

وطريقاً اختارك

قبلَ أن تختاره...

أُمُّكَ رفعتَ يديها

تحتَ سماءِ الحبِّ

وقالت:

اللهمَّ اجعله

نوراً لا ينطفئ...

واجعل صوته

حقاً لا ينكسر...

واحفظ قلبه

مما لا يشبهك...

واكتب له طريقاً

يليق باسمه...

وأبوك لم يُكثِر الكلام

لكنه حينَ نظرَ إليك

قالَ في سرِّه :

اللهمَّ اجعله سنداً

إذا مالَ الزمانُ

واجعله صوتاً

إذا صمتَ الجميعُ

واجعله رجلاً

إذا ضاقتِ الأرضُ

اتَّسَعَتْ بهِ...

وُلِدْتَ يا سعدُ...

ولم يكن الاسمُ

لاحقاً بكَ

بل وُلِدَ معكَ...

لم يكبر في ظلالِكَ

بل كنتَ أنتَ

تكبرُ فيه...

حتى غدا الاسمُ

أكثرَ اتِّساعاً

وكَلَّمَا نَطَقْتَ

اقتربَ من الحقيقة...

لم تكن صدفةً

أَنْ تُسَمَّى سعداً

ولم تكنِ الأيامُ

عابرةً معك...

كنتَ تمشي

والدعاءُ يحرسُ خطواتك

والأمنيات تُضيءُ

لكَ الطريقَ...

يا ابنَ الدعاءِ...

في قلبِ أمِّ

وفي صمتِ أبٍ

لقد كُتِبَ اسمُكَ

بالحبِّ أولاً

ثمَّ بالحلمِ والحقيقةِ

التي صرَّتْهَا...

وها أنتَ اليومَ

لا تحملُ اسمَكَ

بل تحملُهُ الأيامُ معكَ...

ويحملُهُ الناسُ

حينَ يحتاجونَ

إلى صوتٍ يشبهُ الضوءَ...

يا سعدُ...

كمْ من دعاءٍ

رافقَكَ دونَ أنْ تدري...!

وكمْ من عينٍ

كانت تراكَ....!

ونحن نقولُ:

هذا هو الذي

وُلِدَ يوماً

فاستبشرت به الحياة...

وُسِّمِي سَعداً

فصارَ للاسم معنى...

فامضِ، وراءك

أمُّ كانت تدعو

وأب...

كان يرفعُ

رأسه بك...

وأمامك وطنٌ

ينتظرُ أن تكتبه

وإذا سأل الزمنُ :

يوماً عنكَ

تكلّمتِ المواقفُ

ونقولُ:

أنتَ دعاءُ أمّك

حينَ بكتِ فرحاً

وأنتَ اسمُ

اختاره أبوكَ

ليكونَ طريقاً...

وأنتَ يا سعدُ

إذا حضرتَ

اطمأنتِ الحياةُ

كأنَّ الوطنَ

عادَ إلى نبضِهِ...

فَجَرُ الحُرُوفِ

بدأً سعدٌ يتكلّمُ

لم يكن صوتاً عابراً

يُضافُ إلى ضجيجِ العالمِ

بل كأنَّ الأرضَ نفسَها

قد فتحت صدرَها

وأخرجت من أعماقِها حكايةً

ظَلَّت صامتةً طويلاً

ثمَّ قررت أن تُقالَ...

في تلكَ اللحظةِ

لم تكن الكلماتُ

مجردَ حروفٍ تتعاقبُ

بل كانت خُطىً واثقةً

تمشي فوقَ صمتٍ طويلٍ...

كأنَّ كلَّ كلمةٍ منه

كانت تستعيدُ حقَّها

في الوجودِ...

تنفضُ عنها

غبارَ النسيانِ...

سعدُ نطقَ أولَ مرةٍ

لم يكن يتعلَّمُ الكلامَ

بل كَانَ يُعِيدُ تعريفَهُ...

كَانَ يُمَسِّكُ الحَرْفَ

كَمَا يُمَسِّكُ

المُقَاتِلُ سَيْفَهُ

بثِّقَةٍ لَا تَرْتَجِفُ....

وَأَنَّ المَعْرَكَةَ الحَقِيقِيَّةَ

لَيْسَتْ فِي الصَّوْتِ

بَلْ فِي المَعْنَى

الَّذِي يَحْمِلُهُ...

بَدَأَ هَادِئاً

لَكِنْ فِي هَدْوِيَّتِهِ

كَانَ إِعْصَارٌ

وَفِي بَسَاطَتِهِ

كَانَتْ هَيْبَةٌ

وَفِي صَوْتِهِ

كَانَ وَطَنٌ يَتَشَكَّلُ

لَا يُرَى بِالْعَيْنِ...

لَكِنْ يُحَسُّ

فِي نَبْضِ...

كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ

لَمْ يَقُلِ الْكَثِيرَ

فِي الْبَدَايَةِ

لكنَّ ما قاله...

كانَ يكفي

لِيُربِكَ الصمتَ

ويوقظُ الأسئلةَ

ويجعلُ الكلماتِ الأخرى

تقفُ مترددةً أمامه...

كأنَّها تعرفُ

أنَّ زمنَ المجاملةِ

قد انتهى...

وحينَ أخذَ نفساً آخرَ

لم يكن ليستريح

بل ليمنح الصوت

عمقاً أكبر

كأنّه يغوصُ

في بحرٍ داخله

ويعودُ محملاً بآلئ

لا يراها إلا مَنْ يفهمُ...

يا سعدُ...

أيُّ بدايةٍ تلكَ

التي لا تشبهُ البداياتِ...؟

وأيُّ صوتٍ هذا

الذي لم يطلب

إذنًا لِيُسمعَ...

بل فرضَ حضورَهُ

كأنَّه الحقيقةُ

حينَ تُقالُ بلا خوفٍ...؟

كنتَ في أولِ الكلامِ

أكبرَ مِنَ التجربةِ

وأصدقَ مِنَ التوقعاتِ

كأنَّكَ لم تبدأ

بل كنتَ تنتظرُ

اللحظة المناسبة

لتعلن أنك هنا...

وهنا فهم الجميع

أن بعض الأصوات

لا تولد تدريجياً

بل تأتي كاملة

كأنها خلقت لتقود...

واصلت الكلام

ولم يعد الصمت

خياراً لمن حولك

ولم تعد الحقيقة

قابلة للتأجيل

لأنك كنت تقول:

ما يجب أن يقال

ليس ما يُراد سماعه...

يا سعد...

في بداياتك

لم تكن بداية

بل ولادة صوت

يعرف طريقه جيداً

ولا يلتفت إلى الخلف

لأنه خلق

ليكونَ أَمَامَ الجميعِ

ليس خلفَهُم...

بدأتَ ليس كمتكلمٍ

يبحثُ عن ذاتهِ

بل كصوتٍ وجدَ ذاتهُ

منذُ الحرفِ الأولِ...

ومضى يصنعُ

مِنْ كلِّ كلمةٍ موقفاً

وَمِنْ كلِّ موقفٍ

تاريخاً لا يُنسى...

هَدِيرُ الْعَاصِفَةِ

سَعْدٌ...

في طفولته

ليس كالأطفال

الذين يأتون عابرين...

بل كأنَّ بغدادَ أرسلتهُ

في رسالةٍ مختومةٍ

بنبضٍ دجلةَ...

حيثُ الأزقةُ تتنقَّسُ

حكاياتِ الناسِ

والبيوت تُخبئُ

في جدرانها

أصوات الأمهاتِ

وأغاني الغروب...

كان غرساً يُشبهُ الصمتَ

حين يكونُ مليئاً بالمعنى...

في المنصورِ

تعلمَ كيفَ تكونُ

الخطوةُ الأولى

أقربَ إلى الحلم...؟

وفي الكاظميةِ

حفظَ أنَّ للأبوابِ قداسةً

وللخطى اتجاهٌ...

ثمَّ في مدينةِ الحريةِ

كبرتْ ملامحُه أكثرَ

وصارَ يرى العالمَ

أكبرَ من حدودِ الشارعِ...

وأيامِ تُشبهُ الجميعَ

كان هو غيرَ الجميعِ...

لم يكن يركضُ

خلفَ اللعبِ

بل خلفَ فكرةٍ

لا يعرفُ اسمَها...

كان يُصغي للريحِ

كأنها تُخبرُه:

ستكونُ شيئاً

ليس عادياً...

وكانت أمُه

تقرأُ في صمتهِ

مستقبلاً يتشكّلُ

مثلَ فجرٍ بعيدٍ...

يا سعدُ...

يا ابنَ الطفولةِ

التي لم تكن بسيطةً

كيف حملت بغدادَ

وأنت ما زلت تتعلمُ

نطقَ الحروفِ...؟

وكيف صارتِ الكلماتُ

تأتيك قبلَ أن تُتقنَ الكتابةَ...؟

كان الأطفالُ

بينونَ بيوتاً من طينٍ

وأنت كنتِ تبني

من الخيالِ وطناً...

وكانوا يحلمونَ

بلعبةٍ جديدةٍ

وأنتَ كنتَ

تحلُمُ بصوتٍ

يعبرُ الحدودَ...

فيك شيءٌ

لم يكن يُشبهُ الصغارَ...

كأنَّ الزمنَ

وضعَ في قلبك

عُمرًا إضافيًا...

وكأنَّ المدنَ

مرّت بك قبلَ أن تمرَّ بها...

وكلُّ حلمٍ خبأتهُ

كان موعداً...

لم تكن طفولتُكَ

مرحلةً عابرةً

بل كانتِ...

البذرة الأولى لصوتِ

سيعبرُ العالمَ...

صوتٌ سيحملُ العراقَ

حيثُ لا يصلُ الحنينُ

ويقولُ:

أنا هنا...

مِنْ هُنَاكَ ...

كَبُرَتْ يَا سَعْدُ..

وَمَا زَالَ غَرِينُ دَجَلَةٍ

عَالِقاً عَلَى أَصَابِعِ الْحِكَايَةِ

وَمَا زَالَ صَدَى

الْمَآذِنِ الشَّامِخَةِ

يَمْلَأُ حَنْجَرَتَكَ

بِالْيَقِينِ ...

طُفُولَةٌ كَانَتْ تُصْغِي

لَوْشُوشَةِ النِّخِيلِ

وتسألُ النجومَ

في الليلِ...

عن سرِّ الحرفِ

الذي لا ينامُ...

كنتَ تخطُّ

على رملِ الدروبِ

سطوراً...

يمحوها الهواءُ...

لكنَّها حُفِرَتْ

في لوحِ مكتوبِ

عهداً لا يزول...

يا زرعاً شاخَ الحلم

في عينيه مبكراً

فصار أمة...

ويا صبيّاً تجمّعت

فيه أسرارُ السنين

قبلَ أوانها...

فلم تكن براءتُك لهواً

بل ذهولَ العارفينَ

وأنفاسُك الأولى

لم تكن صرخة ميلادٍ

بل أول هديرٍ

للعاصفة القادمة...!

كبرت وبقيت فيك

دهشة السؤال

وشغف الاكتشاف

ذلك الحنين

الذي لا يهدأ...

يا سعد...

يا من خرجت

من أزقة بغداد

لتضيء منابر العالم...

طفولتك لم تنته

بل تحوّلت إلى ضوء...

يمشي باسمك...

وها نحن نقول:

لم يكن طفلاً...

كان بداية

حكاية...

حكاية رجل

وُلد صغيراً...

لكنهُ حملَ

وطناً كبيراً...!

مِحْرَابُ الْمَدْرَسَةِ

دَخَلَ سَعْدٌ...

الْمَدْرَسَةَ أَوَّلَ مَرَّةٍ

لَمْ يَكُنْ بَابًا

يُفْتَحُ فَحَسَبَ

بَلْ كَانَ قَدْرًا

يُكْتَبُ عَلَى مَهْلٍ...

وَكَانَتْ تِلْكَ

الْخَطْوَةُ الصَّغِيرَةُ

أثقلَ من سنواتٍ ستأتي

وأعمقَ من طريقٍ

لم يُرسمَ بعد...

كان الصباخُ

مختلفًا يومها

الهواءُ أهدأ

والشمسُ أقرب

كأنَّ الكونَ كلّه

توقّفَ لحظةً

لينظرَ إليه...

وهو يُمِسُّ حَقِيبَتَهُ

كما يُمِسُّ

حِلْمَهُ الْأَوَّلَ...

سَعْدٌ، بِمَلَامَحٍ

لم تَكْتَمِلْ بَعْدَ....

وَبَعِينِينَ تَلْمَعَانِ

بِدَهْشَةِ الْعَالَمِ...

كَانَ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ

كَأَنَّهُ يَعْرِفُ

أَنْ هَذِهِ لَيْسَتْ

مَجْرَدُ مَدْرَسَةٍ

بل بدايةً حكايةٍ

ستكبرُ معه...

وتكبرُ به...

حينَ وضعَ قدمه

على عتبةِ الصف

لم يكن يعلم

أن الأرضَ

التي يقفُ عليها ستشهدُ

أوّلَ انتصارٍ له...

وأوّلَ صداقة...

وأوّل مواجهةٍ...

مع نفسه...

جلسَ في مقعده الصغير

والمقعدُ لم يكن

صغيرًا كما بدا

بل كان واسعًا...

كالعمرِ كلّهِ...

ينتظرُ أن يُكتبَ عليه

اسمٌ لن يمرَّ

مرورًا عاديًّا...

نظرَ إلى السَّبورة

ذلك السَّوادُ

الذي ينتظرُ الضوءَ...

كَأَنَّهُ يُشْبِهُ دَاخِلَهُ

قَبْلَ أَنْ تَمْتَلِئَ

رُوحُهُ بِالْكَلِمَاتِ...

وَحِينَ أَمْسَكَ الْقَلَمَ

أَوَّلَ مَرَّةٍ...

لَمْ يَكُنْ يُمَسِّكُ

أَدَاةً لِلْكِتَابَةِ...

بَلْ كَانَ يَضَعُ يَدَهُ

على بداية الطريق...

وكان الحرفُ الأوّل

أشبهَ بنبضةٍ قلبٍ تُعلن:

هنا تبدأُ الرحلة...

لم يرتبك

رغم أنّ البداياتِ دائماً

تحمّلُ خوفها...

كان شجاعاً

يُخفي خلفَ هدوئه

يقيناً كبيراً

بأنّه خُلِقَ لشيءٍ أعظم...

وفي ساحةِ المدرسة

حينَ اختلطت

أصواتُ التلاميذ

كان صوتهُ مختلفاً...

ليس لأنَّه أعلى

بل لأنَّه أصدق...

وكأنَّ في داخله شيئاً

يرفضُ أن يكون عادياً...

ركض...

وضحك...

وتعثر...

ثم نهضَ من جديد

وكانَّ المدرسةَ لم تُعلِّمه

القراءةَ فحسب

بل علَّمته أنَّ السقوطَ

ليس نهايةَ الطريق

بل أوَّلُ دروسِ الوقوفِ...

وكان كلُّ جرسٍ

يُعلنُ بدايةً لا نهايةً...

وكلُّ درسٍ

نافذةٌ تُفتحُ

على عالمٍ أوسع...

وكلُّ سؤالٍ

خطوةٌ نحو اكتشافِ نفسه...

تعلّم أنّ الحروفَ

ليست أشكالا تُحفظ

بل أبوابٌ تُفتح...

وأنّ الكلمةَ

قد تكونُ وطنًا

إذا قيلت بصدق...

وفي زوايا الصفِّ

حيثُ تختبئُ

التفاصيل الصغيرة

كان يُكوّن ذاكرةً

لن تمحوها السنين

وجوهًا...

ضحكاتٍ...

ولحظاتٍ...

ستعودُ يومًا

لتُضيءَ قلبه...

وفي نهايةِ اليوم

حين عادَ إلى البيت

لم يَعد كما ذهب...

كان يحملُ في داخله

عالمًا صغيرًا

بدأ يتشكّل...

وكانت عيناه

تَحملان أسئلةً

أكبرَ من عمره

وأحلامًا لا تُقاسُ بحدوده...

يا سعدُ...

ذلك اليومُ لم يكن

يومًا عابرًا

بل كان البذرة الأولى

لشجرةٍ ستكبرُ يومًا

تمدُّ ظلّها للآخرين

وتُثمرُ معنى لا يذبل...

ومن تلك الخطوة الصغيرة

بدأت المسافاتُ

تُقاسُ بك...

وبدأت الأيامُ

تكتبُ اسمك

بين دفاترها...

ليس كطالبٍ

بل كحكايةٍ

سُتروى طويلاً...

دخلت المدرسةَ

أوّل مرّةٍ

ليس كتلميذٍ

يتعلّم الحروف

بل كروحٍ...

كانت الحروفُ تنتظرُها

لُتصبحَ معنى...

ولأنّ البدايةَ

كانت صادقة

لم تتوقّف الرحلة

عند بابٍ...

بل صارت الأبوابُ

هي التي تُفتحُ لك...

وصار الطريقُ

كلّما ظننته ينتهي

يبدأ منك من جديد...

لم تكن المدرسةُ

مكاناً للدراسة

بل كانت مرآة...

رَأَيْتَ فِيهَا نَفْسَكَ

لأَوَّلِ مَرَّةٍ...

وَعَرَفْتَ أَنَّ الْقَادِمَ

أكْبَرُ وَأَجْمَلُ...

سيرةُ القلمِ

أَوَّلُ الدَّهْشَةِ...

الحرفُ لم يتعَثَّرْ

على شفتيه...

يكشفُ للمرَّةِ الأولى

أنَّ للكونِ أجديةً

وأنَّ الضوءَ لا يُرى

بل يُقرأ...

ابتدأتِ الحكايةُ

ليس كدرسٍ يُملى

بل كقدرٍ

يكتبُ نفسهُ

في قلبِ فتى

اسمُهُ سعدٌ...

وكانتِ المقاعدُ تعرفُهُ

كما تعرفُ الأرضُ

وقعَ المطرُ...

يا ابنَ السبورةِ...

حينَ تفيضُ طباشيرُها

نجومًا على كَفِّ الصباحِ

يا من جعلتَ

من الكتابِ

نافذةً لا تُغلقُ

على العالم...

ومن الصفحةِ

جسرًا يعبرُهُ الحلمُ

نحو اتِّساعِهِ...

كم مرَّةٍ جلستَ

تُصغي إلى المعلِّمِ

وإلى الصمتِ

بين الكلمات...!

وتُصغي للمعنى

وهو ينمو خجولاً

في تربة السؤال...

لم تكن سنوات الدراسة

أرقامًا على جدار الذاكرة

ولا فصولًا تُطوى

كما تُطوى دفاتر الغياب

بل كانت مواسم إنباتٍ

ينحني فيها الزمنُ

ليزرع فيك

شجرةً من يقين...

كنت إذا كتبتَ

ارتجفَ الحبرُ

كأنَّه يَعْرِفُ أَنَّهُ

سَيُخَلَّدُ فِي يَدٍ لَا تَكْتُبُ

بَلْ تُنْشِئُ مُصِيرًا...

وَإِذَا قَرَأْتَ

انحنى النصُّ لك

كما تنحني

القصيدةُ لشاعرِها

حين يبلغُ

ذروةَ التجلّي...

يا سعدُ...

يا من كان الطريقُ يختارُك

كما تختارُ الريحُ الجهات

لم تكن طالبًا

بل كنتَ سؤالًا يمشي...

وكلُّ كتابٍ

كان يحاولُ أن يُجيبكَ

ولا يستطيع...

كم ليلٍ

أوقدتَ فيه

قنديلَ السهر...!

لا لتُجزَّ واجبًا عابرًا

بل لتفتح نافذةً

على مجرّةٍ من الفكر...

وكم صباحٍ

دخلت فيه الصفّ...!

كأنّك تدخلُ

معبدَ المعنى

حافئِ الروح

إلّا من شغف...

وكانتِ المدينةُ

تراقبُك من بعيد

تعرفُ أنّ هذا الفتى

لا يمرُّ بها

بل يكتبُها من جديد...

وكانتِ الكتبُ

إذا لامست أصابعك تُزهر

والأفكارُ إذا مرَّت بعينيك

تُصبحُ أجنحةً...

سنواتك لم تكن عادية

كانت اختباراً

بينك وبينك...

بين ما تُعطى

وما تنتزعُه من صمتِ العالم...

كنت كلما تعلّمت

تزدادُ جوعاً

كأنّ المعرفة

بحرٌ لا يُروى

إلاّ بالعطش...

يا من حملتَ دفتركَ

كما يحملُ الشاعرُ قدره

ومشيتَ بين الحروف

كأنّك تعرفُ نهايتها...

أيُّ سرِّ هذا

الذي جعلَ من الدراسةِ

مرآة لروحك

لا قيدًا لخطاك...؟

لم تكن المدرسة جدرانًا

كانت مسرحًا أوّل

تدرّبت فيه

على الوقوف أمام الحياة...

وكانت الجامعة

سماءً ثانية

أطلقت فيها

أوّل نجمةٍ من صوتك...

حتى صار العلمُ فيك

لا يُقال بل يُرى...

يا سعدُ...

يا من جعلتَ

من السنواتِ

سُلَّمًا نحو الخلود

كلُّ لحظةٍ عشتَها

كانت حَجَرًا

في صرْحِكَ القادم

وكلُّ تعبٍ

كان توقُّيعًا

على وثيقةِ المجد...

فامضِ...

فما الدراسةُ إلاَّ البداية

وما الحروفُ إلاَّ ظلُّ

المعنى الأكبر...

وأنتَ الحكايةُ

حين تكتمل

وأنتَ الضوءُ

حين يتعلَّم

كيف يُضيء...؟

عُنفوانُ الرُّوحِ

سعدٌ...

اشتدَّ عودُهُ

بغدادُ لم تُغادره...

كانت تسكنُهُ

أقربَ إلى القرارِ

من الذكرى...

في تلك المرحلة

تداخلَ الحلمُ مع الضوء

والطريقُ مع الأسئلة...

كان سعدٌ يقفُ

على حاقّةٍ شيءٍ كبير

لا يُرى بالكامل

يُشعرُ بثقلِهِ...

لم يعدِ الإصغاءُ كافيًا

الصوتُ الذي تشكّل طويلاً

بدأ يطلبُ الخروج...

لم يكن صراخًا

ولا استعجالًا

بل ضرورة...

كأنّ كلّ ما مرَّ به

وجوهُ الناس...

أزقةُ بغداد...

الصمتُ الطويل

دجلة والفرات

اجتمعَ دفعةً واحدة

وقال:

الآن...

وهنا...

بدأ الانفجار

ليس انفجارًا يهدم

بل انفجارًا يكشف...

يُخْرِجُ الصوت

من احتماليه

إلى حضوره...

الشبابُ ليس عمرًا

بل لحظةً مواجهة

لحظةٌ يُسألُ فيها الإنسان:

من أنت...؟

ليس كما يريدُ الآخرون

بل كما تعرفُ نفسك...

وكان الجوابُ يتشكّل

ببطءٍ في البداية

بوضوح لا يمكن تجاهله:

أنه صوت

لكن ليس أي صوت...

صوت يحمل

أكثر مما يقول...

الطموح لم يكن

رغبة في الظهور

بل شعورًا داخليًا

أن هناك مكانًا

يجب أن يصل إليه...

مكان لا يحده

ولا يَحْتَرُلُهُ

بل يَحْتَبِرُهُ...

في تلك السنوات

كان الطريقُ صعبًا

ليس لأنَّهُ مُغْلَقٌ

بل لأنَّهُ مُفْتَوِّحٌ

على احتمالاتٍ كثيرة

وكلُّ احتمالٍ

يحتاجُ قرارًا...

وكم مرّة

شعرَ أَنَّ العالمَ

أكبر من أن يحتويه...!

لكنّه أدرك لاحقاً

أنّ الصوت الحقيقي

لا يحتاج عالماً صغيراً

بل يحتاج قلباً واسعاً...

بدأ يقترب

من الحلم الذي لم يُسمَّ بعد

لكن ملامحه صارت واضحة:

الإعلام...

ليس صورةً برّاقة

ولا منبراً للظهور

بل مساحة...

يمكن للصوت فيها

أن يكون مؤثراً...

بدأت المواجهة الحقيقية

الإعلام ليس كما يبدو

من بعيد...

ليس ضوءاً بل

مسؤولية...

اختبار...

ومرأة تكشفك...

قبل أن تكشف غيرك...

في أوّل المحاولات

كان الصوتُ يخرج

لكنّه يعودُ إليه

يسأله :

هل هذا أنا...؟

هل هذا ما أريد أن أكونه...؟

لم يكن يقبلُ بسهولة

كان يبحثُ عن نبرته

عن ذلك التوازنِ الصعب

بين القوّة والصدق...

كان يتعلّم

ليس من الكتب

بل من التجربة

من الصمتِ

الذي يأتي

بعد كلِّ محاولة...

وفي كلِّ مرّة

كان يقتربُ أكثر...

الصوتُ لم يعد فكرة

بل صار حضورًا

صار يُسمَع...

لكن الأهم

أنَّه صار يُحسّ...

الآخرون بدأوا يلاحظون

ليس لأنَّ الصوتَ أعلى

بل لأنَّه مختلف...

فيه شيءٌ

لا يُشبه التكرار

ولا يُشبه التقليد

شيءٌ يأتي

من مكانٍ حقيقي

وبدأ الطموحُ يكبر...

لم يعد سؤال :

هل أستطيع...؟

بل صار:

إلى أين يجب أن أصل...؟

لم يكن الهدفُ

مكاناً جغرافياً

بل مستوى حالة

أن يكون الصوتُ

كما يجب أن يكون...

وفي قلبِ كلِّ ذلك

بقي العراق...

ليس كذكرى

بل كحضورٍ دائم...

يمرُّ في كلِّ فكرة

وكلِّ محاولة

وكلِّ خطوةٍ نحو الأمام...

كان يعرف

أنَّ ما يحمُّله ليس خفيفاً

وأنَّ الطريقَ لن يكون سهلاً

لكنَّه أيضاً

كان يعرف

أنَّه لا يتراجع...

الشبابُ كان

لحظةً اشتعالٍ وتحوُّلٍ...

من احتمالٍ إلى بداية...

لم يُعد ينتظرُ الفرصة

بل صار يهيئُ نفسه لها

كأنَّها قادمةٌ لا محال...

الصوتُ الآن

لم يُعد يتكوَّن

بل بدأ يقول...

والطموحُ لم يُعد حلمًا

بل صار اتجاهًا...

ومن بغداد

بدأت الحكاية

إلى الأفق المفتوح...

سيُختبر كلُّ شيء

كان يمضي

لا يبحثُ عن الطريق

بل يصنعه...

وكانت اللحظة الفاصلة

حين أدرك أنَّ الصوت

إذا لم يخرج الآن

قد لا يخرج أبدًا

فخرجَ كاملاً...

وكان كافياً

ليبدأ كلُّ شيء...

من بغدادَ إلى كوبا

وُلِدَ الحلمُ...

في الأزقة القديمة

حين كان الصباحُ ينهضُ

من بينِ دفاترِ الشباب...

وكان المسرحُ بابًا

والحياةُ خشبةً

والخطوةُ الأولى

قصيدةً تمشي...

يا سعدُ...

يا ابنَ مراكزِ الشباب
التي كانت تُنجبُ الضوءَ
يا مَنْ حملتَ قلبَكَ
إلى الخشبةِ...
كأنه وطنٌ صغيرٌ
وكنتَ كلما وقفتَ
ارتفعَ العراقُ
في صوتِكَ أكثرَ...
كانت الستائرُ تفتحُ
على وجوهٍ تحلمُ
والكلمةُ تُغسلُ بالعرقِ

ثم تولدُ حيّةٌ

بين التصفيق...

كنتَ تصعدُ لا لتمثّلَ

بل لتُعلنَ

أنّ الفنَّ لغةُ الحياة...

ومن بغدادَ

حين ضاقت سماءُ الأماكنِ

مددتَ جناحيكَ

نحو البعيد...

نحو جزيرةٍ تشبهُ الحلمَ

اسمُها كوبا...

حيث اجتمع الشبابُ
ليكتبوا العالمَ من جديدٍ
وكانت رايأُهم
أكثرَ صدقاً من الخرائطِ
وأغانيهم أوسعَ
من الحدودِ...
وقفتَ، ليس كضيفٍ
بل كصوتِ وطنٍ كاملٍ
يحملُ في نبرتهِ
دجلةَ والفراتَ...
ويُخفي في عينيهِ

حكاياتِ المدنِ

التي لا تنامُ...

فكنتَ العراقَ

حين يُسافرُ...

والقنَّ حين يتكلَّمُ

بكلِّ اللغاتِ...

يا سعدُ...

أيُّ طريقٍ هذا

الذي يبدأُ

من مسرحٍ صغيرٍ

وينتهي إلى العالمِ...؟

أيُّ قلبٍ هذا

الذي يتَّسعُ

لكلِّ تلك الأصواتِ

ولا يضيغُ...؟

كنتَ تجمعُ الثقافاتِ

كما يجمعُ شاعرٌ

نجومه في بيتٍ واحدٍ

وتقولُ:

الفنُّ ليس مكاناً

بل لقاءً...

وفي كلِّ عملٍ

كنت تترك أثراً

وفي كل مشهدٍ

كنت تزرعُ دهشةً

وفي كل مهرجانٍ

كنت تُعيدُ

تعريفَ العراقِ...

بطريقتكِ...

حضارةً تمشي

على هيئةِ إنسانٍ...

يا مَنْ عبرتَ المسارحَ

كما يعبرُ الضوء نافذةً

وعدتَ محملاً

بأصواتِ العالمِ

علّمْتنا أنّ الفنَّ

ليس ترفاً...

بل جسراً

بين قلبٍ... وقلبٍ...

وأنّ الشبابَ

حين يحلمون معاً

يستطيعون أن يُعيدوا

رسمَ الأرضِ...

وقفتَ أولَ مرةٍ

فحملتَ العراقَ

إلى كوبا...

ويومَ صارَ صوتُكَ

أوسعَ من الجغرافيا...

كانت تلكَ الخطوةُ

التي لم تكنْ بدايةً

بل ولادةَ إنسانٍ

كتبَ نفسهُ

بالحلمِ ومشى...

ولم يكن ما بعد ذلك

مجرد مسير...

بل اتساعاً يكبرُ

كلما ضاق العالمُ

ولا صوتاً يُقالُ...

بل قدرًا يُصاغُ

من نبضِ البلادِ...

فأنتَ لم تحملِ

العراقَ معكَ

بل جعلتهُ يتكلمُ فيكَ

ولم تعبرِ المسارحَ

بل جعلتها تعبرك

نحو العالم...

وحين يسأل :

الزمانُ عنك

سيجدُ أنّك

لم تكن أثراً يُذكرُ

بل بدايةً تتجددُ

كلما حلمَ

شابُّ وصدّق...

لأنّ بعضَ الناسِ يمرّونَ

وبعضهم يبقونَ

وأنت ممن يجعلون

البقاء معنى للحلم

ويكتبون الوطن

بالحضور لا بالحروف...

شهادةُ الجمالِ

تخرَّجَ سعدٌ

من الفنون...

لم يكن ذلك ورقاً

يُعلَّقُ على الجدار

ولا لحظة فرحٍ عابرةٍ

تُطوى مع المساء...

بل كان إعلانَ

ولادةِ صوتٍ

تدرَّبَ طويلاً

ليخرج أخيراً...

واضحاً كالْحَقِيقَة

ثابتاً كالموقف...

سعدٌ...

خرج من قاعة التخرجِ

لم يخرج كطالبٍ

أنهى دراسته

بل كمن يحملُ رسالةً

أثقلَ من الشهادة

وأعمقَ من الكلمات...

يحملُ وطناً في صوته

وتاريخاً في نظرتَه

وكانت خطواتُه

تعرفُ الطريقَ

حتى لو لم تُرسمْ بعدُ...

لم يكنِ الإعلامُ

عنده مهنةٌ

بل كان قدراً

وكانت الكلمةُ عنده

ليست وسيلةً...

بل مسؤوليةً...

وقفَ وأمامَه عالمٌ

مزدحمٌ بالأصوات

لكنّه لم يخَفْ

لأنّه لم يأتِ

لِإُضْيَافِ صَوْتٍ

بل لِيُعِيدَ تَرْتِيبَ

ازدحامِ المعنى

قالَ أوَّلَ كَلِمَةٍ

بعدَ التخرُّجِ...

فارتبكتِ الكلماتُ الأخرى

لأنّها شعرتْ

أنَّ هذا الصوتَ

لا يشبهها...

يا سعد...

كم من أصواتٍ

تعلمتِ الكلامَ

لكنها لم تتعلمِ الصدقَ...!

وأنت تعلمتِ أن تكونَ

الكلمةُ عندك

مرأةً لا تُجاملُ

ونبضاً لا يخونُ...

دخلتِ الميدانَ

ليس كمتدربٍ

ينتظرُ فرصةً

بل كحاضرٍ يعرفُ قيمته

وكأنك تقولُ للعالم:

"أنا لم آتِ لأتعلَّم

بل لأصنعَ الفرقَ..."

في أولِ ظهورٍ لكَ

لم يكنِ الضوءُ

هو الذي أضاءَكَ

بل أنتَ من أضاءَ المكانَ...

وكانتِ العدساتُ

تبحثُ عنكَ

كما يبحثُ المعنى

عن لفظه...

تكلّمتَ فلم يكنِ

الكلامُ عابراً

بل كان كالسهمِ

يُصيبُ الفكرةَ

ويُوقظُ الوعيَ...

لم ترفع صوتك

لكنّ صوتك وصلَ

لأنه خرجَ من مكانٍ

لا يعرفُ الزيفَ...

سعدٌ...

كنتَ تعرفُ

أنَّ الإعلامَ ليسَ

منصةً للظهورِ

بل منبراً للحقيقةِ

وأنَّ الكلمةَ إذا لم تُضَيَّ

فلا معنى لها...

وفي كلِّ تقريرٍ كتبته

وكلِّ حوارٍ خضتَه

كنتَ تُعيدُ تعريفَ الدورِ

تُثبتُ أنَّ الإعلاميَّ

ليس ناقلَ خبرٍ
بل صانعٌ وعيٍ...
واجهتَ العتمةَ
ولم تفقد نورَكَ
مررتَ بالضجيجِ
ولم تتراجع...
لأنك كنتَ تعرفُ
أنَّ الطريقَ الحقيقيَّ
لا يُرى دائماً
لكن يُصِرُّ بالقلبِ...
يا سعدُ...

بعد التخرُّجِ

لم تبدأِ الرحلةُ

بل بدأتِ المواجهةُ...

أن تبقى صادقاً

في عالمٍ يُكافئُ الأتعةَ

وأن تظلَّ قوياً

حين يتعبُ الصادقونُ

وأن تقولَ الحقيقةَ

حتى لو كانت ثقيلةً...

ومع كلِّ خطوةٍ

كنت تُثبتُ

أَنْكَ لَمْ تَأْتِ صَدْفَةً

وَأَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ

كُتِبَ بِاسْمِكَ

قَبْلَ أَنْ تَمْشِيَهُ...

لَمْ تَرْكُضْ خَلْفَ الشَّهْرَةِ

الشَّهْرَةُ رَكَضَتْ خَلْفَكَ

لَمْ تَبْحَثْ عَنِ الضَّوِّ

فَصَارَ الضَّوُّ يَتْبَعُكَ

لَأَنَّكَ كُنْتَ النُّورَ

فِي زَمَنِ يَفْتَقِدُهُ...

وَصَارَ اسْمُكَ

لا يُذكر كخريجٍ

بل كعلامةٍ

كصوتٍ يُعتمدُ عليه

كقصةٍ نجاحٍ

تُروى لمن يأتي بعدك...

يا سعدٌ...

من أولِ حرفٍ نطقته

إلى آخرِ موقفٍ وقفته

كنتَ أنتَ الدليلَ

أنَّ الكلمةَ

إذا خرجت

من قلبٍ صادقٍ

تصبحُ وطناً...

وبعد التخرُّجِ

لم تنتهِ الحكايةُ

بل بدأت تُكتبُ

بجبرٍ أقوى

وصوتٍ أعلى

ومعنى لا يمكنُ تجاهله...

امضِ فالعالمُ ينتظرُ

والكلمةُ بيدكِ

والحقيقةُ تعرفُكِ

وَأَنْتَ تَعْرِفُ جَيِّدًا

أَنَّكَ خُلِقْتَ صَوْتًا

لَا يَعْرِفُ الصَّمْتَ...

رمادُ البداياتِ

نفضتَ عن كتفك

غبارَ القاعاتِ

وأغلقتَ خلفك

أبوابَ الدرسِ والانتظارِ...

لم يكنِ التخرُّجُ

نهايةَ الحكايةِ

بل كانَ أولَ الطريقِ

المشتعلةِ بالحلمِ...

خرجَ سعدٌ كمن يحملُ

في صدره مدينةً

وفي عينيه شوارعَ

لم تُرسم بعدُ

وفي صوته نداءً

لا يسمعه إلا الذين يؤمنونُ

أنَّ الكلمةَ وطنٌ...

مضى نحو مراكز الشبابِ

ليس كموظفٍ عابرٍ

بل كنبضٍ يريدُ أن يعيدَ

ترتيبَ القلوبِ

كريحٍ تُعلمُ الأغصانَ

كيف لا تنكسرُ...؟

بل كيف ترقصُ

رغم العاصفة...؟

لم تكنِ الجدرانُ

هناك إلا صمتاً

فجئتَ وحوّلتَ

الصمتَ إلى أغنياتٍ...

نفختَ في الرمادِ

فاشتعلَ الضوءُ

وفتحتَ الدفاترَ المغلقةَ

لتكتبَ فيها أسماءَ الحالمينَ...

كنتَ تدخلُ القاعةَ

فتنحني المقاعدُ احتراماً

وتصغي الجدرانُ لخطاك

كأنك لا تمشي...

بل تزرعُ الضوءَ

خطوةً خطوة...

بين ضحكاتٍ خجولةٍ

وأحلامٍ متعثرةٍ

كان سعدٌ

يعيدُ تعريفَ البداية...

يقولُ لهم :

ليس المهمُّ

أن تصلوا سريعاً

بل أن لا تتبعوا الطريقَ...

ويقولُ:

افتحوا نوافذكم

فالسَّماءُ لا تُرى

من خلفِ الخوفِ...

وكان صوتهُ

يشبهُ الماءَ حين يلامسُ

عطشَ الأرضِ

هادئاً يوقظُ البذورَ...

يا سعدُ...

يا من جعلتَ

من البداياتِ قناديلَ

ومن التعبِ جسوراً

ومن الشكِّ يقيناً

لم تكن مجردَ خريجٍ

بل كنتَ مدرسةً تمشي

وكتاباً مفتوحاً

تقرأه الأرواحُ

قبلَ العيونِ...

كم شابٍ التفتَ حولك

وكان يحملُ انكساره

في جيبه...!

فأعطيته أملَ الغدِ

وكم فكرةٍ كانت

ستموتُ في المهدِ

أحييتها بلمسةٍ

من وعيك...!

في مراكزِ الشبابِ

لم تعطهم درساً

بل صنعتَ فيهم معنى

وكيف يكونُ الدرسُ حياةً...؟

ويصبحُ الحلمُ مسؤوليّةً...

كنتَ تقولُ:

اكتبوا أسماءكم

على جدارِ الزمنِ

ولا تنتظروا من أحدٍ

أن يمنحكم الحبرَ...

فكبرتِ الكلماتُ فيهم

وصاروا مرايا

تعكسُ نورَكَ

وصارَ الطريقُ

الذي سلكته...

حديقة كل من مرّ بها

ازدهر...

ولم يكن الدربُ

مفروشاً بالورد

بل واجهت رتابة الأيام

وقاومت خريف المبدعين...

كنت تبسم

حين يضيق المدى

لأن أفقك كان أرحب

من مكاتِبِهِم...

ولأنَّ غايَتَكَ

كانت أسمى

من أوراقِهِم...

أيها القادم...

من تعبِ البداياتِ

والواقفُ على تخومِ الضوءِ

لم يكن عملُكَ وظيفةً

بل كان رسالةً

تُكتبُ بالعرقِ

وُتِّخِمْ بِالْإِيمَانِ ...

حَمَلْتَ قَلْبَكَ وَمَشَيْتَ

وَأَمَنْتَ أَنَّ الشَّبَابَ

لَيْسُوا عَابِرِينَ فِي الزَّمَنِ

بَلْ صُنَاعُهُ ...

جَعَلْتَ مِنْ كُلِّ بَدَايَةٍ أَفْقًا

وَمِنْ كُلِّ شَابٍ قَصِيدَةً

تَنْتَظِرُ أَنْ تُقَالَ ...

امْضِ يَا سَعْدُ

فَإِنَّ الرَّمَادَ الَّذِي تَحْتَ

أَقْدَامِ الْبَدَايَةِ ...

ما هو إلا وقودُ

الثورة القادمة...

في عالم المعنى...!

أروقة الأثير

كَانَ الصَّوْتُ بَاباً

لَا يَفْتَحُهُ سِوَى الْإِثِيرِ

وَلَا مَدِينَةً تُشْبِهُ

بَغْدَادَ حِينَ تَصْغِي

كَأَنَّهَا قَلْبٌ كَبِيرٌ

يَتَعَلَّمُ النِّبْضَ

مِنْ جَدِيدٍ...

بَيْنَ أَزْرَارِ الْبَثِّ

وِظَلِّ الْإِسْتُودِيُو

كَانَ رَجُلٌ

يَمْشِي دَاخِلَ الضَّوئِ

كَأَنَّهُ صُنِعَ مِنْ صَوْتٍ...!

سَعْدُ...

لَيْسَ اسْمًا يُقَالُ

بَلْ تَجَرِبَةٌ تَمْشِي

عَلَى سَلَكِ الْإِرْسَالِ

وَتَتْرُكُ خَلْفَهَا

نَشْرَةً حَنِينٍ...

يَا سَعْدُ...

يَا مَنْ دَرَّبْتَ

الصمت على الكلام

في إذاعة بغداد

حين كان المايكروفونُ

أشبهَ بمحرابٍ

لا يدخله إلا المخلصون...

كنت تُخرج الصوتَ

ليس كحرفةٍ

بل كولدَةٍ...

كأنَّ كلَّ برنامجٍ

طفلٌ يولدُ

من رحمِ الدقائقِ

في إذاعة بغداد...

تفوح رائحة

الشريط الممغنط

وتتدلى المصاييح الحمراء

كقناديل تحذير

انتبهوا...

هنا بغداد....!

كنت تقفُ

كقائدٍ أوركسترا

لا تراه العيونُ

تضبطُ جُمْلَةً هذا

وتهذب حدة نبرة ذاك...

تنُ الحرفَ

بميزانِ الذهبِ

وتعرفُ أنَّ الخلَلَ

في الميكروثانية...

قد يكسرُ زجاجَ الوعي

في أقاصي البلاد...

يا سيدَ الإيقاع...

كنتَ تُعيدُ ترتيبَ الزمنِ

تقصُّ من الفوضى جملةً

وتزرعُ في الهواءِ معنىً...

مخرجاً إذاعياً

لكنّك في الحقيقةِ

كنت تُخرجُ الروحَ

من صمتِها...

يا من مررتَ

بالإذاعةِ الموجهةِ

حيثُ الكلماتُ

لا تُقالُ عبثاً

بل تُقاسُ....

كنبضِ المسافاتِ

وُتُرسِلُ كرسائلَ

تُعرفُ أنّها ستُصلُّ

إلى غرباءٍ يشبهوننا...

كان صوتُ العراقِ

يمشي على خرائطٍ بعيدةٍ

وأنتَ تُمسِكُ بخيطه

حتى لا يضيعُ

في زحامِ المدى...

عبرَ الموجاتِ

القصيرةِ والطويلةِ

عبرَ القاراتِ...

التي يفصلها الليلُ
وتجمعُها الحنجرَةُ...
كنتَ تهندسُ اللحنَ
ليكونَ دافئاً
كشمسِ العراقِ...
رخيماً كعتابِ الأُحبةِ
في المقاهي العتيقةِ...
في الإذاعةِ الموجهةِ
لم تكنَ تقرأُ النصوصَ
بل كنتَ تُعيدُ
كتابتها بالروحِ

كأنَّ كلَّ جملةٍ

سهمٌ يبحثُ

عن قلبٍ مستمعٍ

وراءَ البحارِ...

يا سعدُ...

يا من حملتَ

بغدادَ في حنجرتك

ووزعتها في العالم

موجاتٍ موجاتٍ...

وفي التلفازِ...

كنتَ لا تدخلُ الشاشةَ

بل تُدخلُ الدهشة...!

تُعلِّمُ الصورةَ كيفَ تنطقُ...؟

وتجعلُ الصمتَ

لقطةً كاملةً...

لم تكن موظفاً

في مؤسسةٍ

بل كنتَ مؤسسةً كاملةً

تسيرُ كأنها معنىٌ يمشي...

يا مَنْ عرفَ

الاستوديو يديك

وحفظت لوحة المفاتيح

بصمات صميتك وإبداعك

وعرفت نبض الإشارة

وضوءها الأزرق والأحمر

كم من مرة

أشرت للصوت أن يبدأ...!

فبدأ التاريخ

من إشارة صغيرة

من سبابتك...!

كانت بغداد

تمشي في الأسلاك

كنت أنتَ المسافّة

بين الحلم والبتّ ...

كم مرّة

أطفأت ارتباك المذيعين

خلف الزجاج السميكَ

بإيماءٍ من رأسِكَ

بابتسامةٍ واثقةٍ

بهدوءٍ من يعيدُ

للمشهدِ توازنه...؟

ويعرفُ أن الخطأ

ليس نهاية النصّ

بل بدايةً احترافه...

وكم مرة

رفعت من صمتِ النصِّ

وقلّمتِ الزوائد

ونقيتِ الهواءَ من الشوائبِ

حتى صارَ الكلامُ غناءً

وصارَ صمتُ

المذيعِ موسيقى...؟

يا رجلَ الإذاعةِ...

يا من جعلتَ من الهواءِ

وطناً مؤقتاً للصوتِ

في كلِّ نشرةٍ

كان اسمُك يَحْتَبِي

ليس في التتراتِ والعناوينِ

بل في الدقةِ

في توقيتِ التنفسِ

وفي ترجيعِ الصدى

وترتيبِ الجملةِ الأخيرة...

كنتَ تُعَلِّمُ الميكروفونَ

كيفَ ينحني

أمامَ الإنسانِ...؟

وحيثَ امتدَّ بك الطريقُ

إلى عواصم أخرى

وغسلت وجهك

أمطارُ الغرباتِ...

بقيتَ تحملُ بغدادَ

كأنها جهازُ

بثٍّ داخليٍّ

في صدرك لا ينطفئ...

لم تُغيّرْ المدنُ

بل أنتَ من غيّرتَ هواءها

بغدادُ زادتكَ اتساعاً

فغدوتَ مخرجَ إذاعةٍ

يُديرُ العالمَ بأسره

من غرفةٍ صوتٍ ضيقةٍ...!

يا سعدُ...

يا من جعلتَ

من العملِ الإذاعيِّ فلسفةً

وليس وظيفةً...

علّمْتنا أن الصوتَ

ليس موجةً فيزيائيةً

بل ذاكرةٌ حيّةٌ...

وأنَّ الإخراجَ

ليس ترتيبَ مشاهدٍ بصريةٍ

بل ترتب حياة بأسرها...

في الإذاعة الموجهة

كنت تُرسل العراق

بلا ضجيج

بوضوح الحقيقة الناصعة...

يا سعد...

ها نحن

نكتب اسمك الآن

ليس كذكرى ماثورة تُطوى

بل كامتداد لصوت حي

ما زال يعمل ويتردد

في كلِّ جهازٍ

راديو قديمٍ

يئنُّ بالشوق...

في كلِّ أستوديو

يشتاوُ لمخرجه الأبهري

إشارة انطلاق البثِّ

لا تُقال ولا تُعزفُ إلا كما

علّمتها ونظّمتها أنتَ

يا حارسَ الأثير...

يا من جعلتَ

من بغداد...

موجة عصية

لا تنكسر...

فالصوت الذي مررت به

لم يخفت ولن يموت

بل صار ذاكرة

إذاعةٍ بأكملها

وصار اسمك

زراً في لوحة الكون

إذا ضُغَطَ عليه...

تتكلم بغدادُ

بكل هبتها...!

نبضُ المدنِ

يا سعدُ...

يا ابنَ الترابِ

الذي تعلّم من الدمِ

معنى البقاء...

يا مَنْ انحنى له التاريخُ

حين مرّت خطاك

فوق جمرِ الحكايات...

من كربلاءِ ابتدأتَ

من وجعِ الأرضِ

حين تنثُ...

ومن نداءِ الحسينِ ع

حين يعلو على كلِّ موتٍ

ويكتبُ للروحِ

خلوداً لا يُشتري...

حيثُ الطفُّ

ليسَ مكاناً

بل ولادةٌ معنى...

كنتَ جذراً

يضرِبُ في عمقِ الفداءِ

ويشربُ من دمعِ الأمهاتِ

ومن سهيلِ الخيولِ

التي لم تركع...

شربت أدبَ

المجالسِ صغيراً

فأزهرَ في حنجرتكِ

صوتُ الحقِّ المبين...

تعلمت أن الحرفَ

إذا لم يكن موقفاً

فلا خيرَ فيه...

ومن حرارة المآثم

صنعت درعاً لكلماتك

فلا تنحني لطاغ

ولا تجامل في باطل...

حملت ذلك

الريحان الكربلائي

وتلك الدمعة العسيّة

على النسيان...

ثمّ حملت طفولتك

ومضيت بين المنصور

حيثُ الشوارعُ تتباهى

بأحلامٍ تشبهُ

المدنَ الكبيرةَ...

وبينَ الكاظميةِ

حيثُ الدعاءُ يعلو

كأنهُ جناحُ ملائِكٍ

يمسحُ عن قلبِك

تعبَ الأيامِ...

وبينَ الحريةِ

حيثُ الاسمُ وعدُّ

والواقعُ امتحانٌ

كبرت كشجرةٍ

تتحدى الريحَ

ولا تنكسرُ...

يا سعدُ...

لم تكن طفولتُك

لعباً عابراً

بل كانت ساحةَ تدريبٍ

لرجلٍ سيحملُ

المدنَ في صوتهِ...

كانَ الحَيُّ مدرسةً

والزقاقُ كتاباً

والأصدقاء مرايا

تعكس وجه الحياة

حين تضحك...

كنت تمشي

والكلمات تسبقك

كأن اللغة اختارتك

لتكون صوتها

فكبرت وصار

الحرف سيفاً

وصارت الجملة وطناً...

ما بينَ صخبِ المنصورِ

وأناقةِ الحلمِ فيها

وسكينةِ الكاظميةِ

التي تفوحُ بالبخورِ

وصوتِ الجوادين...

وأزقةِ الحريةِ

التي عمّدت روحك

بالبساطةِ والصبرِ

كنتَ تجمعُ العراقَ

في كَفِّكَ...

لم تكن غريباً في محلّةٍ

بل كنت ابنَ البيوتِ كلّها

تسمعُ أنينَ الفقراءِ

وتقرأُ كبرياءَ الشبابِ

فتحوّلتَ من مجردِ

ساكنٍ في المدنِ

إلى هويةٍ تسكنُها المدائنُ...!

يا ابنَ كربلاء...

يا عابرَ بغدادَ

بينَ المنصورِ والكاظميةِ والحريةِ

لم تكن مجردَ عابرٍ

بل كنتَ ترسمُ

على الجدرانِ

أثرَ روحٍ لا تنطفئُ...

فيكَ شيءٌ من كربلاءَ

ليسَ ادعاءً بل نبضٌ

يظهرُ حينَ تكتبُ...

وفيكَ شيءٌ من بغدادَ

حينَ تغضبُ

فتصبحُ القصيدةُ

رصاصةً من نورٍ...

فيكَ كبرياءُ النخيلِ

على الفراتِ...

وفيكَ تمُرُّ دجلةٌ

حينَ يفيضُ بالمعاني...

حينما تتنفسُ

عبقَ الرّحابِ

في الصّحنِ الحسينيّ

ليلةَ جمعةٍ...

كأنّك تستمدُّ

من الضّريحِ نبضَ الحياةِ

فتخرجُ الكلماتُ

من ثغركِ نوراً

وتتحوّل خطواتك

إلى غراسٍ من الإخلاصِ

تنثرُ الدّفءَ

وترسمُ معالمَ الحبِّ

في كلّ زاويةٍ

منّ الوجودِ...

نطقتَ بالحقِّ

وسكنتك بلاغةُ

زينب ع ... في طيّها

وثباتُ العباس ع

عندَ رايته...

لتَهزَّ عروشَ الزيفِ

بميكروفونِ الحقيقةِ...!

يا سعدُ...

أيُّ سيرةٍ هذهِ

التي صارت حياةً

تمشي بيننا

وتحملُ كلَّ هذا الضوء...!

أيُّ قلبٍ هذا

الذي تعلَّم من كربلاء...!

كيف يحبُّ...؟

كيف يقاومُ...؟

وكيف يبقى...؟

أنت لست رجلاً

أنت حكايةُ مدنٍ

وصوتُ أزقةٍ

وذاكرةٌ لم تنحنِ...

فامضِ كما بدأتِ

نقياً كدمعةٍ

في عينِ أمِّ

وعظيماً كصوتِ الحقِّ

حينَ لا يَخافُ...

يا سَعْدُ...

يا امتدادَ النداء

في زمنٍ ضاقَ

فيه المعنى...

وكثرَ فيه

الأقنعةُ المستعارةُ...

ابقِ كما أنتَ...

جذراً لا يُقتلَعُ

من هذه الأرضِ

صوتاً حسيّ النبرة

بغداديّ الهوى

إذا قال :

سمعتهُ الأرضُ

وأصغت لهُ

واهتزَّ لهُ

التاريخُ احتراماً...

لأنك لم تبعِ

الطريقَ يوماً

وبقيتَ...

للأثيرِ والوطنِ
حارساً لا ينامُ...

نحو السّين

لم تَكُن الرحلةُ

إلى باريس...

مُجرّد عبورٍ جغرافيٍّ

بين أرضين...

بل كانت انزلاقاً

من شكل الحياة

إلى معناها الأعمق...

من الجسدِ

الذي يُسافر

إلى الرُّوحِ ...

التي تُعادُ صياغَتُها

عند أوَّلِ تَماَسٍ

مع أرضِها ...

لم تُعلنِ باريِسُ وصولَكَ

كما تُعلنِ المِهُدُنُ

عن عابرين ...

بل كَتَبْتُكَ على طَريقَتِها

كَأَنَّكَ لم تأتِ إليها

بل صِرتَ جزءًا

مِن لُغَتِها الأولى ...

عِنْدَ ضِيقِ السَّيْنِ

لَمْ تَكُنِ الْمَسَافَةُ

تُقَاسُ بِالْخُطَى

بَلْ بِمَا يَنْكَسِرُ

فِي الدَّاحِلِ مِنْ يَقِينٍ...

كُلُّ شَيْءٍ بَدَأَ

مَأْلُوفًا وَغَرِيبًا

فِي آنٍ وَاحِدٍ...

كَأَنَّكَ تَمْشِي

دَاخِلَ حُلْمٍ يَعْرِفُكَ...

بَارِيسُ اسْتَقْبَلَتْكَ

ليس كغريبٍ

يتعلَّم الطريق

بل كحضورٍ يُضيفُ

إلى المدينة طبقةً

جديدةً من المعنى...

كأنَّها حينَ رأتكَ

أدركتُ أنَّ بعضَ الوصول

ليس حركةً

بل اكتمال...

كانتِ المدينةُ

واسعةً كفكرة

باردة كمسافةٍ

لم تلتقِ فيها

قلوبٌ بعد

جميلةً حدَّ أنها

لا تحتاجُ أن تعرفَكَ

لأنَّها تنتظركَ...!

أن تمشي في شوارعها

وتتعلَّم نفسك

من جديد....

كلُّ خطوةٍ تُعيدُ

تعريفَ القدم....

وكلُّ زاويةٍ تسأل:

أنتظرُكَ...؟

لا شيء يُشبهُكَ...

الوجوهُ كثيرة

لكنَّها لا تلتفت

الأصواتُ عالية

لكنَّها لا تُناديك...

كأنَّ المدينةَ

مكتفيةٌ بذاتها

لا تفتحُ قلبها

إلاَّ لِمَن يَنسى

قلبه أوَّلاً...

لا أحد يعرفُ

دجلة والفرات

سوى القليل

ولا أحد يفهمُ

معنى نخلةٍ كبرت

في صدرِ إنسان

ولا أحد يلتقطُ

ارتجافَ الذاكرة...

حينَ تُذكرُ بغداد

كما تُذكرُ الأمُّ

في آخِرِ الليل...

سألت الرِّيح:

هل تَحْمِلِينَ رائحةَ الوطن...؟

فمرّت كأنَّ السؤالَ لا يعنِيها

وضَحِكَتْ دونَ أن تُجِيبَ

وتركتكَ واقفًا

بين احتمالَيْن:

أن تكونَ غريبًا

أو أن تُعيدَ اختراعَ نفسك...

وحينَ جلستَ وحيدًا

في غُرفةٍ صغيرة

تُرتَّبُ حَقِيبَتَكَ كَأَنَّكَ

تُرتَّبُ حَيَاتَكَ

اكتشفت الحقيقة

البسيطة القاسية:

جئتَ بكلِّ شيء...

لكنَّ بغداد

لم تكن شيئاً

يُتركُ خَلْفَكَ

كانت شيئاً

يَمْشِي معكَ...

دون أن تراه...

تسكنُ صوتك

حينَ تتكلم...

وتختبئُ في صمتك

حينَ تحنّ...

باريسُ لا تُشبهُها

لكنّها كشفت

لك سرّاً آخر:

أنّ العُربةَ ليست مكاناً

بل اختبارٌ للقلب

حينَ يُجرّدُ من ضجيجِه...

وفي باريس...

لم تَكُنِ المدينةُ وحدَها

مَنْ يفتُحُ أبوابَه

بل كانتِ المعرفةُ أيضًا

تفتُحُ نوافذَها الكبرى...

حيثُ تقفُ السُّورِيون

كذاكرةٍ للعقلِ الإنساني

وجدرانُها تحملُ صدى قرونٍ

مِن السؤالِ والإجابة...

هناك دخلَ سعدُ

ليس كطالبٍ يعبرُ مرحلة

بل كفكرةٍ تبحثُ

عن شكلها في العالم...

لم يكن يجلسُ لستمع

بل ليُعيدَ

تفكيرك المعنى...

وليبي من السؤال

سؤالاً أوسع...

كأنَّ المعرفةَ عنده

ليست حفظاً

بل اشتعالٌ مستمر...

في المكتبات

بين رفوفٍ تُشبهُ

طبقاتِ الزمن

كان كمن يمشي

داخلَ ذاكرةِ البشرية...

كانتِ الليالي طويلة

والبردُ يضغطُ

على النوافذ...

لكنَّ داخلَهُ كان

شيءٌ آخر ينمو:

دفءُ الفهم...

تَعَلَّمَ أَنَّ الْإِعْلَامَ

لَيْسَ صَوْتًا

بَلْ مَسْئُولِيَّةٌ مَعْنَى...

وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَيْسَتْ

مَا يُقَالُ دَائِمًا

بَلْ مَا يُصَانُ

حِينَ يُخْتَبَرُ الزَّمَنُ...

وَفِي كُلِّ نِقَاشٍ

لَمْ يَكُنْ يُمَثَّلُ نَفْسَهُ

بَلْ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ

وَطْنًا كَامِلًا...

باريس...

لم تَكُنْ نهايةَ الطريق

بل بدايته الأخرى...

فالغربة لم تَكُنْ فقدًا

بل طريقةً أخرى للفهم

والمعرفة لم تَكُنْ إضافةً

بل إعادة ولادة...

بينَ بغداد

التي تسكنُ القلب

دونَ أن تُرى

وباريس التي تُعَلِّمُكَ

كيف ترى

ما لم تكن تراه...؟

تشكّلت سيرةٌ لا تنتهي

عند مدينة...

تبدأ من إنسانٍ

قرّر أن يكونَ صوتهُ

أكبرَ من المسافة

وأصدقَ من الغياب

وأعمقَ من كلّ اكتمال...

جامعة السوربون

يا سَعْدُ...

يا ابنَ الحرفِ

حينَ يهاجرُ

ولا ينكسرُ...

يا صوتَ دجلةَ والفراتِ

حينَ ارتدى معطفَ باريس

وسارَ بين لغتين...

لغةِ القلبِ

التي تركتها هناك

ولغةِ الضوء

التي جئتَ تبحثُ عنها

على ضفافِ السين...

في حاراتِ الحي اللاتيني

وتحت قبة

جامعةِ السوربون

لم تكن طالبًا عابرًا

يملاً المقاعد

بل كنتَ تاريخًا

يمشي على قدمين...

ونبض أمةٍ كاملةٍ

أثقلها الغياب

تحمّل بغدادَ في قلبك

كتميمةٍ حظ...

يزرعها نبضك

في قاعاتِ الفكرِ

حدائقَ من نخلٍ

ورازقيّ لا تدبّل...

يا سَعْدُ...

كيف دخلتَ

أبوابها المهيبة...؟

أكنتَ تحمّلُ

جواز سفرٍ ورقي...!

أم كنتَ تحملُ

وطنًا كاملاً

برافديه ونخيله...

يصرخُ في وجه المدى:

أنا هنا...؟

حيثُ الفلسفةُ تتنفسُ

هواءَ الحرية

والكتبُ العتيقةُ

نوافذُ مفتوحةٌ

على أسرار الكون...

لم تجلس على المقاعد

لتتعلم تلقيناً

بل جئت لتعيدَ

تعريفَ المعنى

وتصنع للمغترين هوية

ولتقولَ للغربةِ القاسية:

لستُ غريباً في بلاد

رينيه وديكارت...

أنا الامتدادُ الحضاريُّ

الذي لا ينقطع...

يا ابنَ العراق...

يا من كتبتَ اسمك

بمدادٍ من كبرياء

على جدرانِ الضوء

كيف جمعتَ في قلبك

بين نخلةٍ باسقةٍ

في الجنوب...

وبرجٍ شاهقٍ يطاول

الغيم في باريس

دون أن ينكسر...

في روحك واد الحنين...؟

في السوربون...

كنت تكتبُ

فصولَ مجدك...

ليس بالحبرِ الجافِ

بل بوجعِ المدنِ والأرصفةِ

التي تركتها خلفك...

وبصوتِ أمِّ

دافعها الشوق

تنتظرُ رسالةً

من وراء البحار

تصلُ متأخرة...

لكنها تأتي ممتلئةً

بك وبأخبارك...

يا سَعْدُ...

أيُّ درسٍ

هذا الذي تعلمتَ

وعلمت...؟

أهو درسُ المعرفةِ

التي تفتح العقولَ

أم درسُ الصبرِ الجميلِ

حين يكونُ الحلمُ

وراء البحارِ أكبرَ

من مشقة الطريق...؟

كنتَ تمشي

في أزقة باريس

والشوارعُ والأبنية العتيقة

تراقب خطواتك الواثقة

كأنها حجرٌ

ينطق ويعرفُ...

أن هذا الفتى القادمُ

من فجر الشرق

سيتركُ في قلبِ العاصمةِ

أثرًا طيبًا لا تمحوه

أمطارُ الشتاء...

يا سَعْدُ...

يا من جعلتَ

من مقاعدِ الدراسةِ

ثورةً هادئةً...

ومن الحلمِ النبيلِ وطنًا

بديلاً نلوذ به

علّمتنا أن الطريقَ

إلى القممِ الشاهقةِ

لا يُقاسُ بالمسافاتِ

ولا بالخطوات...

بل بالإصرارِ

وعزة النفس...

ولا يُكتبُ بريق

الشهاداتِ وحدها

بل بكرامةٍ

إنسانيةٍ شاحخةٍ

لا تنحني للعواصف...

في جامعةٍ

السوربون العريقة

لم تكن مجرد رقمٍ عابرٍ

في سجلات الخريجين...

بل كنت قصيدةً

من الوفاء تُدرّسها

الجدرانُ للنوافذ...

وحكايةً من الكفاح

يتناقلها الطلابُ

في الممرات...

كأنها أسطورةٌ

نجاحٍ شرقية

صِغت في بلاد الغرب...

يا سَعْدُ...

أيُّ مجدٍ

هذا الذي صنعته

بيمينك...؟

أن تحملَ وطنًا

مثقلاً بالجراح

في قلبك...

وتمنحه في محافل العلم

شهادةَ الخلود...

أن تكونَ جسراً

حضارياً حياً

بين أَلَمِ الفراق

ومعرفةِ العالم

بين دجلة والسين

بين العراق وفرنسا...

أيها الاسم...

الذي تجاوز الحروف

وصار معنى

وكتب بمداد وفائك

من جديد...

أن من يذهب

إلى مغاني العلم

بقلبٍ ممتلي

بحب الوطن

يَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ

وَطَنًا كَامِلًا

يُستضاء به...

البياضُ يُعائِقُ باريسَ

باريسُ...

حينَ يهبطُ عليها الثلجُ

لا تتزيّنُ بل تتأمّلُ نفسها

كأنَّ المدينةَ...

تُطفئُ ضجيجَها

الداخليّ قليلاً

وتتركُ للعالمِ فرصةً نادرةً

لأن يسمعَ قلبُها

وهو يهدأ...

الثلجُ هنا

ليس طقسًا

بل إعادةُ كتابةٍ

الأرصفتُ...

والنوافذُ...

والخطواتُ...

وحتى الأفكارُ...

التي مرّت يومًا

ثم لم يُلتفتْ إليها...

كلُّ شيءٍ يُصبحُ أخفَّ

لكن أعمق...

الشارعُ الذي كانَ

مزدحمًا بالأمسِ

يبدو اليومَ كأنَّه يتعلَّمُ

المشي من جديدٍ

ببطءٍ يُشبهُ الاعترافَ

وبهدوءٍ يُشبهُ الغفرانَ...

الناسُ يمشونَ

وكأنَّهم يخافونَ

أنَّ يُوقظوا الجمالَ

كأنَّ كلَّ خطوةٍ

غيرَ محسوبةٍ

قد تُرِكَ هذا البياضُ
الذي لا يطلبُ شيئاً
سوى أن يُشاهدَ بصمتٍ...
وفي هذا الصمتِ
تبدأُ المدينةُ بالكلامِ
ليس بالكلماتِ
بل بالإشاراتِ...
ظلُّ شجرةٍ على الثلجِ
نافذةٌ نصفُ مُغلقةٍ
مقهى يُضيءُ

في زاوية شارعٍ قديمٍ

ودفءٌ يتسرَّبُ

من الزجاجِ...

كأنَّه وعدٌ صغيرٌ بالحياة...

برجُ إيفل...

لا يتغيَّرُ شكلُهُ

لكنَّ الثلجَ يُغيِّرُ معناه...

لم يعدْ مُجرَّدَ

هيكلٍ حديديٍّ

بل صارَ ذاكرةً واقفةً

رجلاً من الضوء والبردِ

يُفَكِّرُ فِي الْمَدِينَةِ

كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَجْرُسُهَا

مِنَ الْوَحْدَةِ...

وَفِي الْأَعْلَى

حَيْثُ الْهَوَاءُ أَنْقَى

يَبْدُو الْبَرْجُ كَأَنَّهُ يَكْتُبُ

رِسَالَةً غَيْرَ مَرِيئَةٍ

إِلَى السَّمَاءِ...

مَا زَالَ الْجَمَالُ مُمْكِنًا

حَتَّى فِي أَقْسَى اللَّحْظَاتِ...

نَهْرُ السَّيْنِ...

يُصْبِحُ أَبْطَأَ

مَّا هُوَ عَلَيْهِ دَائِمًا

كَأَنَّهُ لَا يَجْرِي

بَلْ يَتَذَكَّرُ...

يَتَذَكَّرُ الْوَجْهَ الَّتِي مَرَّتْ

وَالْحَكَايَاتِ...

الَّتِي لَمْ تُكْمِلْ نَفْسَهَا

وَالْخَطَوَاتِ الَّتِي ذَابَتْ

قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى نَهَائِهَا...

وَمَعَ كُلِّ مَوْجَةٍ صَغِيرَةٍ

يَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَهْمِسُ:

أنا لا أنسى

لكنني أخفي...

الجسور فوقه...

لا تربط ضفتين

بل تربط طبقات

من الزمن

كل طبقة تمشي

فوق الأخرى

كما لو أنَّ التاريخ

قرَّر أن يعيش

في لحظةٍ واحدةٍ...

المقاهي في هذا البياضِ

لا تعودُ أماكنَ عاديّةً

تصيرُ ملاجئَ

صغيرةً للرُّوح...

حيثُ الكأسُ الساخنُ

ليس مشروبًا

بل مقاومةٌ صامتةٌ

ضدَّ بردِ الوقتِ

و ضدَّ الشعورِ

بأنَّ العالمَ

أَسْرَعُ مِمَّا يَنْبَغِي...

أَصْوَاتُ الْأَكْوَابِ

تَصْبِحُ أَكْثَرَ حُضُورًا

ضِحْكَاتُ خَافَتِ

نَظَرَاتُ عَابِرَةٍ

أَحَادِيثُ لَا تَرِيدُ أَنْ تُقَالَ

بَصُوتِ عَالٍ...

كَأَنَّ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا

قَرَّرَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِالْهَمْسِ...

الْمَنَازِلُ الْعَتِيقَةُ...

تبدو وكأنَّها تعرفُ

هذا الطقسَ جيِّداً

فتتخلَّى عن قسوتها قليلاً

وتُظهرُ ما لا يُرى عادةً...

دفعَها الداخليّ

ونوافذَها التي تُضيءُ

كقلوبٍ صغيرةٍ لا تنام...

كلُّ شرفةٍ

في باريسَ الثلجيّةِ

تُشبهُ وعداً مؤجَّلاً

وكلُّ بابٍ

نصفُ مفتوحٍ

يُشبهُ قصةً لم تُنهَ بعد...

حتى الغيوم...

لا تبدو ثقيلةً

بل كأنّها تؤدّي دورها

في مشهدٍ طويلٍ

من الجمالِ الهاديِّ

الذي لا يصرخُ

ليُثبتَ وجودَهُ...

وهذا المشهدُ

يبدأُ الإنسانُ بالتغيُّرِ

دون أن يشعر...

لا يعودُ ينظرُ بسرعةٍ

بل يتعلَّمُ التمهُّلَ

لا يعودُ يمرُّ على الأشياءِ

بل يمرُّ داخلَها...

كأنَّ الثلجَ

لا يُغطِّي المدينةَ

بل يُعيدُ تشكيلَ

طريقةِ رؤيتنا لها...

باريسُ في الشتاءِ

ليست أجملَ

لأنَّها بيضاء

بل لأنَّها صادقة

في بياضِها...

لا تُخفي شيئاً

ولا تدَّعي شيئاً

بل تترك كلَّ شيءٍ ظاهراً

لكن بهدوءٍ مختلف...

وحينَ يذوبُ الثلجُ

لا تعودُ المدينةُ كما كانت...

تعودُ أخفَّ وأصفى

كأنَّها مرَّت بتجربةٍ

اعترافٍ طويلٍ مع نفسها...

الأرصفتُ التي غطّاها البياضُ

تحتفظُ بأثرٍ خفيٍّ...

ليس أثرُ خطواتٍ

بل أثرٌ معنى...

أنَّ الجمالَ

ليس في ما يُرى

بل في اللحظةِ

التي يجعلُنا نرى فيها أنفسنا

بشكلٍ أعمق...

ويبقى الثلجُ

كضيفٍ عابرٍ

لكنَّ حضوره

أطولُ من بقائه...

يأتي ليذكر المدينة

أنَّ الصمتَ ليس فراغاً

بل شكلٌ آخرُ من المعنى...

وأنَّ البياضَ

ليس نهايةَ اللونِ

بل بدايتهُ حينَ يتعلَّمُ

كيف يكونُ هادئاً...

تعودُ باريسُ

إلى ضجيجها الخفيف...

يبقى شيءٌ منها في الداخلِ

ذاكرةٌ بيضاءُ

تُعلِّمنا أنَّ الجمالَ الحقيقيَّ

لا يرفعُ صوتهُ

بل يمرُّ ويتركُ أثره...

زواجُ القدرِ

أنجبَ الثمرَ

سعدُ... ..

حينَ أحبَّ في باريسَ

لم يكنَ الحبُّ عابراً

ولا نزوةَ قلبٍ

تحتَ سماءِ مدينةٍ

تُتقنُ الضوءَ... ..

بل كانَ قدراً

يتشكّلُ بهدوءٍ

نهر السين...

ويكبرُ كأغنيةٍ

لا تنتهي...

يا سعدُ...

حينَ أُحِبَّتْ

لم تُحِبَّ امرأةٌ

بل أُحِبَّتْ العالمُ

وهو يتسّمُ لك

من عينيها...

كانت باريسُ شاهدةً

ليس على اللقاء

بل على ولادة رجلٍ

يعرفُ كيف يُنصتُ لنبضه

حين يصيرُ الحنينُ لغةً...؟

وفي زوايا المدينةِ

حيثُ تتكئُ الأرصفةُ

على الضوء

مشيتما معاً...

خطوتانِ تكتبانِ عمراً

وصوتانِ يصنعانِ بيتاً

من دفءِ الكلام...

ثم كان الوعد

لا يُقالُ كالكلماتِ العابرةِ

بل يُنقشُ في القلبِ

كما يُنقشُ الاسمُ

على الحجرِ...

تزوَّجَتْها يا سعدُ

فصار الحبُّ بيتًا

وصارت الأيامُ

أوسعَ من أن تُقاسَ...

وفي لحظةٍ

تشبهُ المعجزةَ

انشقَّ الحلم عن طفلٍ

يحملُ اسمًا من نور... .

عبدالرحمنُ... .

كأنَّه دعاءُ

استجابَ له الزمن

وكأنَّ قلبك

أعادَ كتابةَ نفسه

في هيئةٍ نبضٍ جديد... .

ثم جاءتْ الأخرى... .

ليس كاسمٍ

بل كمدينةٍ تولدُ

من جديد...

مريمُ طفلتك

التي حملتِ الاسمَ

كأنَّ المدينةَ

أهدتكِ نفسها

كي لا تغادرِكَ أبدًا...

فصرتَ بينهما...

أبًا يقفُ

بين تاريخٍ ومستقبل

بين اسمٍ من السماءِ

واسمٍ من الأرض...

يا سعدُ...

لم تعدّ وحدك

لقد صرتَ طريقًا

يمشي عليه اثنان

وصرتَ حياةً

تُروى على شكلِ عائلة...

باريسُ لم تكن مدينةً

بل كانت رحماً

أنجب لك الفرح...

وفي كلِّ مساءٍ

حينَ تنامُ الأسماءُ

على كتفك

تعرف أن الحب

حين يكون حقيقياً...

لا يكتفي بالبقاء

بل يُثمر...

وها أنت الآن...

لا تُعرف بصوتك

ولا بتاريخك وحده

بل بضحكتين

تجريانِ نحوك

كأهما الحياةُ

حين قرّرت

أن تُحبَّك أكثر...

يا سعدُ...

إن سألوا عن الحبِّ

فقل:

هو أن تُنجبَ اسمين

يُكملائك...

عبدالرحمن و مريم...

إِذَاعَةُ الشَّرْقِ

في باريسَ ...

تمشي اللغاتُ

على أرصفةِ الضوء ...

وتتلاقى الأصواتُ

كما تتلاقى الأنهارُ

في قلبِ بحرٍ

لا اسمَ له ...

كانَ هناكُ صوتٌ

ليسَ فرنسيًّا تمامًا

عربيًا كما اعتدناه...

في دفء المقاهي

وطناً يُعادُ اختراعُه

من فم الميكروفون...

سعدٌ...

لم يكن رجلاً عابراً

في نشرة أخبار

بل كان نشرةً كاملةً

من الحنين...

إذا تكلم

استيقظت مدنٌ

في الروح...

وإذا صمتَ

ارتجفتِ الذاكرةُ

كأنها فقدتْ دليلها...

كانَ يحملُ بغدادَ

بين ضلوعه

ليس كمدينةٍ تُروى

بل كقَدَرٍ يُعاش...

ويزرعُها في حدائقِ باريس

فتنبُتُ نخیلاً

في هواءِ الغربة...

ويصيرُ الحنينُ

شجرةً لها

ظلٌّ وصوت...

اجتمعوا...

ليؤسّسوا إذاعةً

ليبنوا جسراً من الكلام

جسراً لا يُرى...

تعبُرُ عليه القلوب

من المنفى إلى الذاكرة

ومن الغيابِ

إلى ما يشبه الحضور...

قالوا:

لن نكونَ صدى

سنكونُ الأصل...

لن نكونَ خبراً عابراً

سنكونُ الخبرَ

الذي يُقيمُ في القلوب

ويُعيدُ ترتيبَ النبض...

فانبثقتِ "الشرق"

كشمسٍ صغيرة...

في سماء أوروبا

كانت أوسع

من الجهات...

تتلو أسماءنا

كما تُتلى الصلوات...

وتنادي علينا

كي لا نخطئ نبرة الألم

ولا نُضيّع ملامحنا

في زحام اللغات...

يا سَعْدُ...

يا من جعلت

الحرفَ سفيراً

والصوتَ جوازَ سفر

كيفَ أقنعتَ باريسَ

أن تُنصتَ لوجعِ

لا يشبهُها...؟

كيفَ جعلتَ الغربَةَ

تتحدّثُ بلهجتِنَا

وتبكي دونَ

أن تُخفي دموعَها...؟

كنتَ تعرفُ

أنَّ الإذاعةَ

ليست جهازاً

بل قلبٌ...

إذا خفقَ

سمعهُ العالمُ

وإذا صدقَ

آمنَ بهِ البعيدُ

قبل القريب...

فرفعتِ الموجةَ

كرايةٍ لا تُرى

لكنها تُحرِّكُ الشعوبَ

وتفتحُ نوافذَ

في الجدرانِ المغلقة...

من السنين إلى بغداد

ومن الحنينِ إلى الميكروفون

كانت الرحلةُ

أطولَ من وطن

وأقصى من غياب...

لكِنَّكَ اختصرتها

بصوتٍ واحد

صوتٍ كان يكفي ليقول:

"نحنُ هنا..."

وإن ابتعدنا..."

في غرفةٍ صغيرةٍ...

ربما لا تتسعُ إلا للحلم

صنعتُم إذاعةً

تتسعُ لأمة

وتحملُ وجوهاً

لم تجدُ مكاناً لتُقال...

كنتُم تقولون:

"هنا الشرق..."

لكن الحقيقة كانت:

هنا كلُّ الذين

لم يجدوا مكاناً

ليقولوا:

نحن...

يا سَعْدُ...

أَيُّ شَجَاعَةٍ تِلْكَ

التي تجعلُ المنفى منبراً...؟

وَأَيُّ إِيمَانٍ

يجعلُ الصوتَ

أقوى من الحدود...؟

لم تكن "الشرق"

مجردَ اسم...

بل وصيّة الحنين

ودمعةً تعلّمتُ

كيفَ تُذاع...؟

وفي كلّ بثٍّ

كانت الأمهاتُ

يسمعنَ أبناءهن...

وكانت المدنُ

تستعيدُ أسماءها

وكان العراقُ...

يخرجُ من الحصار

بصوتك...

يا صانعَ الضوء

من العتمة...

يا من كتبتَ على الهواء:

"لسنا بعيدين..."

نحنُ على موجةٍ أخرى..."

ستمضي السنوات

وتبقى الحكايةُ

أوضحَ من الزمن:

أنَّ رجلاً...

لم يرضَ أن يصمت

فجعلَ من باريسَ منبرًا

ومن الغربةِ وطنًا

ومن الصوتِ تاريخًا...

حملت الشرقَ

في صوتك

لكنّ الأعجوبةَ الكبرى

أنّ صوتك

صارَ وطنًا لا يُنفى

ولا يُنسى...

وطنًا يسكنُ القلبَ

كلّما ضاقَ العالمُ اتّسع...

رسالة باريس

باريس...

نافذة من ضوء

على قلب بغداد

وشرفة تطل

منها الأرواح

على ما تبقى من الحلم

حين يتعب الواقع...

يا نهر الحكايات...

حين يفيض حنيناً

من دجلة والفراتِ

إلى السّين...

لا يكونُ الماءُ ماءً

بل ذاكرةٌ تسيل

وصوتاً يُهاجرُ

ولا ينكسر...

يقفُ الصوتُ العراقيُّ

مرفوعاً كقوسِ النصرِ

فوقَ الغربة...

كأنّه يقولُ للعالم:

نحنُ لا نغيب

ونُعِيدُ ترتيبَ حضورنا...

هنا سعد...

ليس كاسمٍ يُقال

بل كحكايةٍ تمشي

يحملُ بغدادَ في قلبه...

ويُخرجُها للعالم

زهرةً لا تُذبل...

ولو مرّت عليها

كلُّ فصولِ التعب...

يقول:

أنا من هناك...

من أرضٍ تُنجبُ

الشمسَ كلَّ صباح

حتّى وإن اختبأتْ

خلفَ دخانِ الحروب...

أنا من هناك...

من أمّ تضعُ الوطنَ

في قلبِ ولدها

وتهمسُ:

إذا ابتعدت...

فلا تنسَ الطريقَ

فالطريقُ...

أنتِ...

يا باريس...

كم مرّة

سمعتِ اسمه...؟

وكم مرّة رأيتِ العراقَ

يُعادُ تشكيّله في

تقرير...

ولقاء...

وابتسامة...

لم تتعلّم الهزيمة...؟

لم يكن مراسلاً...

بل كان جسراً

من الكلام

يمدُّ المسافات

بين قلبٍ وقلبٍ...

وكان مرآةً

يرى فيها العراقيون العالم

ويرى العالمُ فيها العراق

كما ينبغي أن يُرى:

حيّاً...

نابضاً...

أكبر من جراحه...

في كل خميسٍ

لم تكن القلوبُ

تنتظرُ برناجًا

بل كانت تنتظرُ

نافذةً أمل...

نافذةً تُفتحُ

في جدارِ العتمة

فتدخلُ منها الحياةُ

خفيفةً...

لكنّها كافية...

وجوهٌ من الفنّ

أصواتٌ من الحلم

مدنٌ لا تعرفُ الحصار

وأرواحٌ تمشي

بلا خوف...

كأنّ العالمُ

لم يُخلَقْ ليُخيفَ أحدًا...

وكان سعدٌ يقول:

"العالمُ ليس بعيدًا..."

أنتم فقط...

بحاجةٍ إلى نافذةٍ..."

لم يكن يفتح

نافذةً فحسب

بل كان يُعيدُ

تعريفَ الضوء...

ويُقنعُ القلبَ

أنَّهُ قادرٌ

على أن يرى...

حتّى في العتمة...

يا سعدُ...

أيُّ بريدٍ هذا

الذي حملته...؟

وأَيُّ رسائلَ

جعلتَ المنفى

وطناً مؤقتاً

لا يُوجعُ كما ينبغي...؟

كنتَ تكتبُ بالصورة

وتنطقُ بالصمت

وتزرعُ في كلِّ شاشةٍ

نبضةَ حياة

كأنَّكَ تُعيدُ

ترميمَ الروح

بكلماتٍ لا تُرى...

لكن تُحَسّ...

يا ابنَ النخلة...

يا ظلّها في باريس

يا صوتّها...

حين خفّتِ الأصوات

لم تكنِ وحدك

كان معك شعبٌ كامل

ينظرُ من خلفِ الشاشة

ويقولُ بصوتٍ عظيم:

نحنُ ما زلنا بخير...

لم تكن مهتمك

نقل الخبر

بل إنقاذ المعنى...

لم تكن تلاحق الحدث

بل تُعيد إليه روحه

كأنك تعرف

أن الحقيقة

لا تُقال بل تُصان...

كنت إذا تحدّثت

انحنت اللغة قليلاً

لتصير أكثر صدقاً

وإذا صمتَّ

تكلّمتِ الصورةُ

بما يعجزُ عنه الكلام...

يا سعدُ...

إنَّ المَدَنَ تُقاسُ

بمن يحملُها

ليس بمن يسكنُها

وأنتَ حملتَ العراقَ

حتّى صار أخفَّ

من وجعه...

وأكبرَ من حدودِه

لم تلتفت إلى تعبِ الطريق

فأنتَ الطريقُ

حين يضيعُ الدليل

واكتبَ رسالتك الأخيرة

كما بدأتها:

واضحَةً...

دافئةً...

ومليئةً بالعراق...

اكتبها هذه المرة

ليس كرسالةٍ تُقرأ

بل كأثرٍ يبقى

كضوء لا ينطفئ

كحضور...

لا تُلغيه المسافات...

فإذا سألتك باريسُ يومًا:

من أنت...؟

نقول:

ذلك الصوتُ

الذي مرَّ من هنا

وترك في الهواءِ بغداد...

وإذا سألك العالم:

ماذا فعلت...؟

نقول:

أعاد للوطنِ صورته

وأقنع الغربه

أفها لا تنتصر...

وإذا سألك الزمن:

هل انتهت...؟

نقول:

سعد لا ينتهي...

إنه في كل مرة

يولد فيها

وَحِينَ يُنْطَقُ اسْمُهُ

يَتَكَلَّمُ الْعِرَاقُ...

إذاعةُ مونتِ كارلوِ الدوليّة

باريسُ... ..

يا شُرْفَةَ الضَّوِّ المِطْلَّةَ

على قلبِ العراقِ...

يا مدينةً إذا هَمَسَ

فيها الغريبُ تلقَفَتْهُ

الأرضُ كأنَّه ابنُها...

وكأنَّ الأرصفةَ

تحفظُ خطاهُ

كما تحفظُ الذاكرةُ

أَوَّلَ نبضٍ فيها...

من دجلة والفراتِ

إلى السين...

لم تكن المسافةُ

ماءً يُقاس

بل كانت حنينًا

يعبرُ القارّاتِ...

ويستقرُّ في صوتٍ

اسمه سعدٌ...

لم يكن الصوتُ

عندهُ صدئٌ عابرًا

ولا الخبرُ كلماتٍ

تُقَالُ وتمضي...

بل كانَ يُرْتَّبُ

وجعَ الناس

كما يُرْتَّبُ الضوءُ

في لوحة

ويُعيدُ للخبرِ قلبه...

في "ريپورتاج..."

لم يكن يسرُّ الوقائع

بل كانَ يفتحُ لها صدرًا

يدخلُ منها الإنسانُ

ويخرجُ منها المعنى...

وفي "نافذةٍ على العراق..."

لم تكن نافذةً

بل كانت فتحًا

في جدارِ الغربة...

يدخلُ منه النخيلُ

وصوتُ الأمهاتِ

وحكاياتُ الأزقة

كأنَّها تعودُ إلى نفسها...

وفي "مرايا..."

لم يكن يعكسُ ما يُرى

بل كان يرى ما لا يُرى

ويكتبُ الحقيقةَ

بصوتٍ يُشبهُ الشعرَ

حين يبلغُ ذروةَ انكشافه...

أما "ألو مونت كارلو ..."

فكان قلبًا مفتوحًا

تمتدُّ إليه الأسئلةُ

من الناس...

وتعودُ إليهم

إجاباتٍ دافئة

كأنَّ الصوتَ هناك

كان وطنًا صغيرًا

من طمأنينة...

ثم تأتي

"السَّهْرَةُ الخَلِيجِيَّة ..."

كأنها نسمةٌ بحرٍ

تعبُرُ ليلَ باريس

تحمِلُ العود

ونبضَ الأغنيات

وصوتَ الخليج

وهو يعانقُ بلاد

ما بين النهرين...

كان الليلُ أقلَّ وحدة

وكانت الموسيقى تجمعُ

ما فرّقته المسافات

وتقول:

العربُ حين يغنون

يعودون وطنًا واحدًا...

يا سعدُ...

يا من جعلتَ

باريسَ تُصغي للعراق

وجعلتَ العراقيَّ

يبتسمُ في الغربة... .

لم يكن صوتُك بُنَّا

بل عودةً روحٍ

كلما ابتعدت

ازدادتُ قربًا... .

كنتَ تمشي

بين اللغات

ولا تضيع... .

تحمِلُ العربية

كأنها وطنٌ... .

يا ابنَ العراق... .

وظلَّه في باريس

وصوته حين

خفتِ الأصوات... .

لم تكن وحدك

معك شعبٌ كامل

ينظرُ من خلفِ الشاشات

ويقول:

نحنُ ما زلنا بخير...

والأصوات... .

التي تُشبهُ الأوطان

لا تعرفُ النهايات...

يا سعدُ...

لم تكن ما صنعتُهُ

لحظةً تُقال

بل قدرًا أعاد

تعريفَ الصوت...

كنتَ نداءً يتكرّر

في القلوب

كلما ضاقتْ بهم الأرض

يجدونك هناك

تقول:

إنَّ الوطنَ لا يضيع

إذا بقيَ له صوت...

صنعتَ من الميكروفونِ

نافذة...

ومن الهواءِ أرضاً

ومن البثِّ حياةً

يعودُ فيها الإنسانُ

إلى نفسه...

لم تُغادر بغداد

بل حملتَها كنارٍ

في الرماد...

تُخفيها لتبقى
وتُبقيها لتُضيء...

كنتَ دجلة
وهو يتعلَّم السين
والسينَ وهو ينحني
لذاكرة الفرات...
وفي زمنٍ كان فيه
الصوتُ كثيراً...

والمعنى قليلاً
كنتَ أنتَ المعنى...

لم تُقْنِعِ النَّاسَ

بأنهم بخير

بل جعلتهم

يجدون الخير

في داخلهم...

وحين يُسأل :

الزمنُ عنك

لن يقول:

مرّ صوت

بل سيقول:

وُلِدَ وطنٌ ...

وانحنتِ المسافاتُ

أمام صوته...

وتعلَّم الغريبُ

أنَّه ليس غريبًا

إذا وجدَ صوتًا

يناديه باسمه...

يا سعدٌ...

من يسكنُ القلوب

لا يغيب...

وتبقى صوت يُسمع

وأثرًا يُنشئُ السَّمْعَ

من جديد...

وكأنَّ الحروفَ

حين تمرُّ بك

تكتسبُ خلودَها...

وتبقى حضورًا يكبر

وقوَّةً تُعيدُ

تعريفَ الغياب...

فكلُّ فراغٍ يمرُّ باسمِكَ

يمتلئُ بك حدَّ الاكتمال...

وكلِّما همَّ

الغيابُ أن يكتمل

اختلَّ نظامه

وتبعثرت نهایاته

كأنَّ فيكَ سرًّا

يُفسدُ على العدمِ تمامه...

لأنَّكَ لستَ

امتدادًا للزمنِ

بل أنتَ زمنٌ

إذا حضر...

تراجعت أمامه الأزمنة

وأنتَ لستَ

صدىً لصوت

بل أصلُ الصوتِ

حين يتذكّر نفسه...

فكيف يكتملُ الغيابُ

وأنتَ في المعنى إقامة

وفي الذاكرة نشأة

وفي القلبِ

بدايةً لا تُفضي

إلى نهاية...؟

التلفازُ الفرنسيُّ

يا سعدُ...

يا من حملتَ

بغدادَ في صوتك

كمدينةٍ تُذكر

وقدَرٍ يُتلى...

ومشيتَ بها

بين أضواءِ

التلفازِ الفرنسيِّ...

كأنّك لا تعبرُ شاشةً

بل تُعيدُ خلقَ وطنٍ

كان العالمُ

قد نسي ملامحَه...

كنتَ تمضي

ليس كعابرٍ

في نشرةٍ عابرة

بل كزمنٍ عراقيٍّ

يُصرُّ أن يُقال

ولو بلغةٍ لا تُشبهه...

أيُّها القادمُ...

من ضفافِ دجلة

وقد غسّلتَ وجهك

بماءِ الذاكرةِ الأولى

وحملتَ معك

رائحةَ الطينِ

حين يُنادى

باسمِ الوطنِ...

كيف استطعتَ

أن تُقنّعَ باريسَ

أنّ العراقَ

ليس خبراً يُقرأ

ولا شريطاً يُعرض

ولا رقماً

في أرشيفِ الحروب...؟

بل قلبٌ...

إذا نبضَ اهتَزَّتْ لَهُ

خرائطُ الأرض

وتغيَّرَ معنى الجهات...

في استوديو بعيد...

حيثُ البرْدُ لا يُشْبِهُ

برْدَ الحنين...

كان صوتُكَ

يخترقُ اللغةَ

لا لِيُترجمَها

بل لِيُعيدَ تعريفَها...

يصعدُ كأذانٍ

خفيّ في مدينةٍ

لا تعرفُ العربية

لكنّها انصتْ لكْ

كما ينصتُ القلبُ

لنبضهِ الأول...

كنتَ هناك

ليس كإذاعي

بل كجسرٍ من ضوء

يمتدُّ من كربلاء...

حيثُ الدموعُ تُصلي

إلى شوارعِ السنين

والضوءُ يتكلَّم...

ومن تعبِ الحصار

إلى نشرةٍ تُعيدُ

للناسِ وجهَ العالم

بعد أن شوَّهتهُ الأخبار...

قالوا:

هذا إعلامي...

وقلنا:

هذا وطنٌ تجسّدَ

في هيئة رجل...

ففي كلّ تقريرٍ

كنتَ تزرعُ نخلة...

وفي كلّ حوارٍ

كنتَ تُعيدُ ترتيبَ

صورة العراق...

كما يجب أن تُرى

لا كما أُريد

لها أن تُرى...

لم تكن الكاميرا عدسةً

بل كانت عينك

التي ترى ما يتوارى

خلف الظل...

لا تكتفي بالرؤية

بل تُنقذ المعنى

من فم الصمت...

يا سعد...

حين دخلت

التلفاز الفرنسي

لم تدخل غريبًا...

بل دخلت كأنك

تعرفُ المكان

منذُ خُلِقَ الضوء...

دخلتَ وأنتَ تحملُ

مفاتيحَ الحكاية

وصوتَ الذين لم يجدوا

من يتكلّمُ عنهم...

بين لغاتٍ ثلاث

كنتَ تتكلّمُ

بلغةٍ رابعة

لغةٍ لا تُدرّس

ولا تُترجم...

اسمها العراق...

فهموك...

ليس لأنهم

عرفوا الكلمات

بل لأنهم

شعروا بالصدق...

حين تحدّثَ عن الفنّ

كان الجمالُ يتكلّم...

وحين تحدّثَ عن الإنسان

كانت الإنسانيةُ

تستعيدُ اسمها...

وحين قلتَ:

وطن...

ارتجفتُ الحروف كأثما

تخرجُ لأول مرة...

لم تكن مهمتُك سهلة...

أن تكونَ عربيًّا

في شاشةٍ غريبة...

أن تحملَ ذاكرةَ الحروب

وتتكلمَ بلغةِ الحياة...

لكِنَّكَ فعلتَها...

بهدوءٍ العارفين

وعنادِ العاشقين

وإيمانٍ من يعرف

أنَّ الصوتَ حين

يكونُ صادقاً

لا يحتاجُ إذناً ليصل...

صرتَ صوتاً عربياً

داخلَ مؤسسةٍ عالميّة...

ليس لتُعرّفَ

الغربَ بالعراق

بل لتُعيدَ العراق

إلى نفسه...

يا سعد...

أيُّها العابرُ

بين ثقافتين

كأنَّكَ لم تغادر

بغداد يوماً

فهي فيكَ...

كما النبضُ في القلب

وكما الضوءُ في العين...

ورغم أنَّ باريس

حَفِظْتَ اسْمَكَ

فِي أَرْشِيفِ الضَّوءِ ...

إِلَّا أَنَّكَ حَفِظْتَ الْعِرَاقَ

فِي أَرْشِيفِ الرُّوحِ ...

كَنتَ تَقُولُ:

الْإِعْلَامُ لَيْسَ نَقْلًا

بَلْ مَسْئُولِيَّةٌ ...

أَنْ تَخْتَارَ الْحَقِيقَةَ

حِينَ تَتَزَاحَمُ الرِّوَايَاتُ

أَنْ تَقُولَ ...

حِينَ يَخَافُ الْآخَرُونَ

أن ترى...

حين يُغلقُ

الجميعُ أعينهم...

وكنتَ تقولُها

بصوتٍ لا ينكسر...

يا ابنَ الحضارات...

كيف جمعتَ

بين نُهرين...؟

دجلة في القلب

والسين في الملامح...

وبينهما وُلدَ إعلامٌ

لا يُشبهه أحداً

يشبهُك أنت... .

في نشراتِ الأخبار

لم تكن خبيراً... .

بل كنتَ السببَ

الذي يجعلُ

للخبرِ معنى... .

كنتَ حكايةً تُروى

كلَّ مساء

ولا تنتهي... .

وفي الشاشة

لم تكن صورة...

بل حضورًا إذا غاب...

شعرَ المشاهدُ

أنَّ شيئًا من الوطن

قد انطفأ...

أنتَ تُعيدُ

ترتيبَ الضوء

في زمنِ العتمة...

وتُقنِّعُ العالمَ

أنَّ العراقَ

ليس حربًا بل

حِضَارَةٌ...

تَمْشِي...

وَتَفَكِّر...

وَتَكْتُب...

وَتَنْهَض...

كَلَّمَا ظَنُّوا

أَنَّهَا انْتَهَتْ...

يَا سَعْدُ...

لَوْ سَأَلُوا عَنْكَ...

نَقُولُ لَهُمْ :

أَنْكَ ذَاكَ

الذي لم يتركْ بلاده

حتى وهو في أقصى الغرب... ..

أَنْكَ الذي كلّمَا نطقَ

تكلّمَ معه وطن... ..

أَنْكَ الصوتُ

الذي حين ارتفع... ..

لم تسمع باريس

بل سمعت بغداد

وهي تشرقُ

من جديد... ..

شاشةُ العربيةِ

سعدُ...

يا مَنْ حملتَ

الحرفَ على كتفِ الغربةِ

ومشيتَ بهِ نحوَ الضوءِ

كأنك تعرفُ أنَّ الطريقَ

لا يُفتحُ إلا لمن يُؤمنُ بهِ

حدَّ الاحتراقِ...

في دبي...

كانت الشاشاتُ

تبحثُ عن نبضٍ

كنتَ أنتَ النبضَ

تجمعُ الشتاتَ

في جملة...

وتعيدُ ترتيبَ الفوضى

كي تقفَ

الحقيقةُ مستقيمةً

كقلبٍ عاشقٍ لا يخون...

أحدُ مؤسسي

قناة العربية

وليسَ التأسيسُ

حجراً يُوضع

بل روحٌ تُنفخُ

في جدارِ الصمتِ

حتى يتكلم...

كنتَ محرراً

لكنَّ الحبرَ عندك

لم يكن مادةً تُسكب

بل موقفاً...

وكانت الكلماتُ

تنهضُ من بين يديك

كجنودٍ لا يعرفون

الانكسار...

وكنتَ مدرباً...

تزرعُ في العيونِ

بوصلةَ الحقيقةِ

وتقولُ:

لا تكتبوا لترضوا أحداً

اكتبوا كي لا تخجلوا

من أنفسكم

يا ابنَ العراق...

يا صوتَ النخيل...

حينَ يتعبُ من الصمت

كيفَ استطعتَ

أن تحملَ وطنكَ

في السفر

وتوزّعهُ على نشراتِ الأخبار

قطرةً... قطرةً...؟

في باريس

كان لكِ ظلٌّ آخر

صوتٌ يعبرُ المسافات

يكتبُ للعراقِ

من نافذةِ العالم

ويقولُ:

هنا...

ما زال القلبُ هناك

لم تكن إعلامياً

كنتَ جسراً

بين الحقيقةِ والناس

والوجعِ والغربةِ

ووطنٍ يسكنُ القصيدة...

كم علّمتَ من الحروفِ

أن تكونَ شجاعة...!

وكم أنقذتَ من معنى

كان على وشك السقوط....!

وكم من شابٍ

وقفَ أمامكَ خائفاً

فأعطيته من يقينكَ

ما يكفي ليحلق....!

يا سعدُ...

يا من جعلتَ الصوتَ

أكثرَ من صدى

بل موقفاً...

كيفَ نختصرُكَ....؟

أقولُ:

أنتَ قنّاءة...؟

أم أقولُ:

أنتَ مدرسة...؟

أم أقولُ:

أنتَ وطنٌ

يمشي على قدّمين...؟

كلُّ ما فيكُ

يقولُ إنّ الإنسانَ

يمكنُ أن يكونَ

أكبرَ من جغرافيا

وأصدقَ من خبر

وأبقى من زمن...
أنت تُشعلُ الضوء
في عيون الآخرين...
وتكتبُ العراق
في كلِّ مكان...
سابقى اسمك
في ذاكرة الشاشات
وقلوب الذين
تعلموا منك
أن الحقيقة لا تُساوم...

مَعْهَدُ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ

يَا سَعْدُ...

أَيُّهَا الْمَاشِي

عَلَى جِسْرِ الْحُرُوفِ

بَيْنَ بَغْدَادَ وَبَارِيسَ

تَحْمِلُ فِي صَوْتِكَ نَخْلَةً

وَفِي صَدْرِكَ

وَطَنًا لَا يُخْتَصَرُ...

عِنْدَ بَوَابِهِ

مَعْهَدِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ

كنت لا تدخُلُ كعابر

بل كقصيدةٍ

تعرِفُ طريقَها

إلى الضوء...

كأنَّ الحرفَ العربي

حينَ ضاعَ

في زحامِ العالم

وجدَ فيكَ

تُرْجُمَانُهُ الأخير...

يا ابنَ الوجعِ العراقي...

يا من كتبتَ

الوطنَ بنبرةٍ

لا تُشبهُ إلا الحنينَ

كيفَ استطعتَ

أن تجعلَ من الغربةِ

محرابًا للهوية...؟

ومن المنفى

مقامًا للعزف

على أوتارِ الذاكرة...؟

كنتَ تمشي...

وفي حُطَاكَ

تاريخٌ من التعب

وفي عينيك مُدُنٌ

أُغْلِقْتَ أَبْوَابَهَا

لَكِنَّكَ فَتَحْتَ

في الحروفِ نوافذَهَا

لتَظَلَّ مِنْهَا الْأَرْوَاحُ

التي لم تَمُتْ...

أَيُّهَا الَّذِي لَا يُسَاوِمُ

على اللغة...

وَلَا يُفَرِّطُ بِدَمْعَةٍ

سَأَلْتَ عَلَى خَدِّ الْوَطَنِ

في فرنسا كُنْتَ أَكْثَرَ

من صوتٍ في إذاعة

ووطناً يُهاجرُ

ولا يذوب...

كنتَ نخلةً تُثمرُ

في صقيعِ المدنِ البعيدة...

من إذاعةٍ إلى شاشة

ومن برنامجٍ

إلى ذاكرةِ الناسِ

كنتَ تُرمّمُ ما كُسِرَ

في الروح...

وتُعيدُ للعراقِ ملامحَهُ

حين حاولتِ الرياح

أن تُطفئَ اسمَه...

يا مُستشارَ الحرف...

في مَعهدِ الضوء

يا من جعلتِ الثقافة

جسرًا لا يُهدَم

كيف جمعتَ

بين ضفّتين...؟

ضفّةٍ تنزِف

وأخرى تُنصِت...

كنتَ تقول:

العروبة ليست شعاراً

بل قلبٌ إذا نبضَ

في الغُربة...

صارَ العالمُ بيتاً

وصار الحنينُ صلاة...

يا سعدُ...

يا من لم يُغادرِ الوطنَ

وإن غادره

أنت حلمٌ

في ذاكرةِ الحروفِ

فكلُّ كلمةٍ كتبتها

صارت منارة

وكلُّ وجعٍ حملته

صار درسًا

في الصمود...

ستبقى ما بقيت

باريسُ تُنصِتُ للعريّة...

والنخلُ يرفعُ رأسه

في وجهِ الريح

ستبقى صوتًا

وقصيدةً لا تنتهي...

اليونسكو ذاكرة العالم

يا من حملت العراق

في ضمير يضيء

مثل اليونسكو...

ويفتح أبواب

الحضارة كلما ضاقت

على الشرق السنين

يا سعد...

يا صوت البلاد

إذا اعتلى...

منصاتِ فكرٍ

لا تُقاسُ بمنصبٍ

يا من جعلتَ الحرفَ

سفيراً صادقاً

يمشي إلى الدنيا

بالثوبِ المذهبِ...

في اليونسكو

لم تكن اسماً يُقالُ

بل كنتَ تاريخاً

يُعادُ ترتيبه...

كنتَ العراقَ

إذا تكلم عارفاً

أن الحضاراتِ

العظيمة تُكتبه...

حيثُ العالمُ

اتحدت رؤاهُ

في قاعةٍ من ضوءٍ

فكرٍ مُشرقٍ...

وقفتَ ليس كغريبٍ

صوتٍ عابرٍ

بل كامتدادٍ

الرافدين العابق...

حملت من بغداد

نخل قصائد

وسقيته من روح

باريس العتيقة

مزجت بين دجلة والفرات

وشفافية السين...

فصار الحرف

أغنية رشيقة

كنت الوسيط...

الذي يصنع

المعاني في الخبر
وليس الذي ينقل الخبر
فإذا تحدّثت
الثقافات انحنّت
لتسمع العراق...
بصوتك المنتصر
في كلّ مؤتمر...
رسمت ملامحاً
لوطننا لا تنحني للغربة
قدّمت وجه الفنّ...

لا أوجاعه

وأعدت للإنسان

معنى النخبة

تدرّب الصحفي...

كي يسمو الوعي فيه

كما درّبت الحرف

أن يتألق...

في ورشة

من نور فكر

صار القلم فيها

ضميراً مطلق...

يا سعدُ...

في اليونسكو

كنتَ قصيدةً

تمشي على أرصفةِ

الفكرِ العريق

لا تكتفي بالوصفِ...

بل تبني المدى

وتعيدُ صياغةَ

الطريقِ إلى الطريق...

منحتَ العالم

حروفاً ناطقة

وأعدت للإنسان

صوته المغيّب...

علمت أن الإعلام

ليس مهنة

بل يكون الضوء...

حين يغيب

وفي المهرجانات الكبرى

كنت من يرفع العراق...

ليس شعاراً عابراً

بل صورة تُروى

بثقافة أمة

يا من جعلت

التراث جسراً بيننا

وبين عالم يفتش

عن جذور

قلت:

الحضارة لا تُقاس بمدنٍ

بل بالذي يبقى...

إذا انطفأت الأضواء

وفي اليونسكو...

كنت تُنصت للمدى

وتعيدُ تعريفَ

الحوارِ الأُمّمي

تكتبُ للعالم:

هذا موطني

فانظرُ هنا الإنسانُ...

ليس الرقمُ الرسمي

لم تكنْ مجردَ

مستشارٍ عابرٍ

بل كنتَ ذاكرةَ

العراقِ إذا نطق

تحملُ التاريخَ...

ليس كحكايةٍ

بل كهويةٍ شعبٍ...

إذا اشتدَّ الأفق

يا سعدٌ...

يا ابنَ الحضاراتِ

التي لا تنتهي...

مهما تبدّلتِ العصور

ستبقى هناك...

في ضميرِ اليونسكو

صوتاً عراقياً...

يُضيءُ ولا يبور

فإذا سألوا:

من الذي مثّل العراق...؟

قلنا:

هو الذي جعلَ

العالمُ ينصتُ للعراق

هو الذي لم ينقلْ بلداً...

بل جعلَ بلداً...

يسكنُ كلّ الآفاق

أنتَ تكتبُ مجدنا

في كلّ محفلٍ

فكرٍ لا يزول...

وتختصرُ المدى

وتمشي فيصمتُ

خلفك المستحيل...

سيد المنصات

ليس صوتاً عابراً

في مهرجانٍ

ولا ظلّاً يمرُّ

على الشاشاتِ

ثمَّ يغيبُ...

بل هو الحضورُ

حين تتقاطعُ اللغاتُ

وتنحني الأضواءُ

لتقرأَ اسمًا كُتبَ

من العراق...

ومُهرَّ بِختمِ العالم...

سعد...

حين يدخلُ قاعةً

في باريس

ترتّبُ الكراسي هيبتها

وتعتدلُ الميكروفوناتُ

كأنها تستأذنُ الهواءَ

أن يكونَ أكثرَ فصاحة...

في المهرجاناتِ العالمية

حيثُ تتجاوزُ القارأتُ

وتتخاصمُ الثقافاتُ

على المعنى...

كانَ يحملُ العراقَ

ليس كجغرافيا...

بل كقلبٍ يتكلمُ

حين يعجزُ الكلام...

في مهرجانٍ سينمائيٍّ

كانتِ الكاميراتُ

تصوِّرُ الضوء

وحدهُ كان يصوّر الحقيقة

يُعيدُ للقطّةِ روحَهَا

ويمنحُ المشهدَ

ما لم يُكتبْ في السيناريو...

وعلى خشباتِ

المسرحِ الدوليِّ

حين يعلو التصفيقُ

ويخفتُ خلفَ الستارِ

صخبُ الأسماء...

كان سعدٌ

يمشي كأنه نصٌّ حيٌّ

لا يُمثَّل ...

بل يُعاش ...

في المهرجانات العربية

حيثُ اللغةُ مرآةُ القلب

كان صوتهُ

أقربَ إلى نبضِ الجمهور

وأصدقَ من كلِّ الحُطْب

كأنه يقول:

العروبةُ ليست شعاراً ...

بل موقفٌ

يُختبرُ أمامَ العالم ...

وفي العراق...

حين تُضاء

القاعاتُ المتعبة

ويجلسُ الحلم...

في الصفوفِ الأولى

كان حضوره

عيدًا آخر

وصوته نافذة

تُفتح للغد...

لم يكن ضيفًا...

بل كان ذاكرةً المكان

وحين يُعلنُ اسمه

تنهضُ المدنُ

من تاريخها لتصفق...

سعد...

يا من جعلت المنابر

تتشبهُ بك

والكلمات تبحثُ

عنك بين الحروف

يا من صرتَ

حين يُقالُ إعلام

يُفهمُ المعنى...

في كلّ مهرجانٍ

كنتَ أكثرَ من حضور

كنتَ معيارًا

يُقاسُ بهِ الحضور

وأثرًا يُقاسُ بهِ البقاء...

من بغدادَ

إلى عواصمِ الضوء

ومن ذاكرةِ الطين

إلى شرفاتِ العالم...

ترفعُ اسمَ العراق

ليس كرايةٍ

بل كحقيقةٍ

تمشي بين الناس...

سعدٌ...

ليس اسمًا في برنامجٍ

ولا سطرًا في إعلان

بل هو البرنامجُ

حين يكتمل

والحكايةُ حين تُروى

كما يجب...

أنتَ تعبُرُ المنصَّات

كأنك القصيدة

وحضورك يصبحُ

المهرجانُ أنتَ...

هَيْبَةُ الصَّوْتِ

لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ الْكَلِمَةَ

صَارَ شَاهِدًا

عَلَى الزَّمَنِ...

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ صَعَدَ الْمَنْبَرَ

صَارَ مِيزَانًا لِلْحَقِيقَةِ

لَكِنَّكَ يَا سَعْدُ

كَنتَ حِينَ تَتَكَلَّمُ

كَأَنَّ الْعِرَاقَ كُلَّهُ

يُعيدُ تَرْتِيبَ صَوْتِهِ

في حنجرتك...

كنتَ تمشي

إلى الخبر

ليس كناقلٍ له...

بل كمن يُنقبُ

في أعماقه

عن قلبٍ يخفُّ بالحقيقة...

وحينَ كانتِ الكلماتُ

تُباعُ على الأرصفةِ

وتُوزَّعُ كسلعٍ بلا روح

كنتَ وحدكَ

تُعِيدُ لها شرفَها

وَتُعِيدُ للمعنى كرامته...

يا سعدُ...

أَيُّ مدرسةٍ تلكَ

التي تخرَّجتَ منها...؟

وَأَيُّ نارٍ تلكَ

التي صهرت صوتكَ

حتى صارَ

لا يخافُ العاصفة...؟

كنتَ تقولُ:

"الحقيقةُ أولاً"

ليس شعاراً...

بل سيفاً

تمشي به

في زحامِ التزييف...

في كلِّ مواجهةٍ

لم تكن تُديرُ ظهرك

بل كنتَ تتقدّم...

كأنّك تعرفُ

أنَّ التراجعَ خيانةٌ

وأنَّ الصمتَ

أحياناً جريمة...

وحينَ اشتدَّ الليلُ

على وجوه المدن

كنتَ تُشعلُ الكاميرا

ليس لتُضيءَ الصورة

بل لتُعيدَ للناسِ

إيمانهم بأنَّ

الضوء موجود...

لم تكن تبحثُ

عن التصفيق...

ولا عن العناوين الكبيرة

كنتَ تبحثُ

عن جملةٍ واحدةٍ صادقةٍ

تعيشُ أكثرَ

من الضجيج...

يا سعدُ...

في زمنٍ

تعبت فيهِ المواقفِ

وصارتِ الكلماتُ

تتعبُ قبلَ أن تصل...

كنتَ أنتَ

تمشي عكسَ التعب...

وثُبتُ أنَّ الصوتَ

إذا كان صادقاً لا يشيخ...

كم مرةٍ وقفتَ وحدكَ

في وجهِ موجةٍ كاملة...؟

وكم مرةٍ قلتَ "لا"

حينَ كانَ الجميعُ

يتقنُ قولَ "نعم"...؟

تلكَ الـ"لا"...

لم تكن حروفاً

كانتَ وطناً صغيراً

تحملة في صدرك...

أيها العابر...

بين الأخبار

كأنك لا تعبر

بل تزرع أثراً

في كلِّ حدث...

وحين يُذكرُ الإعلام

تذكرُ كاسمٍ

ليس صوتٍ عابر...

سعد...

يا من جعلت الميكروفون

أقرب إلى الضمير

والشاشة أقرب

إلى مرآة الحقيقة...

يا من لم تنحن

إلا للحقيقة

ولم ترفع صوتك

إلا حين يكون

الصمتُ خيانة...

تعلمنا منك

أنَّ الإعلام

ليس مهنة

بل موقف...

وأن الصحافة

ليست حبراً

بل دم

إذا لزم الأمر...

فابق كما أنت

صوتاً لا يشتري

وموقفاً لا يُوجَل

وإذا سألوا يوماً:

من كان سعد...؟

قلنا:

كَانَ رَجُلًا

إِذَا تَحَدَّثَ...

صَمَتَ الزَّيْفَ

وَإِذَا حَضَرَ

حَضَرَ الْحَقِيقَةَ...

رحيل يُنزف

يا سعدُ...

كيف احتملت الغيابَ

ولم ينكسر فيك العمر...؟

كيف وقفتَ والأبُ

كان عمودَ السماءِ

في صدرك...؟

رحلَ الذي كان إذا ناديتُهُ

جاءك الكونُ كلّه...

وكان إذا ضاقت

بك الدنيا

اتّسعت يدهُ

كسماٍٍ ثانية...

يا سعدُ ليس الحزنُ

أن تبكي بل أن تصحو

ولا تجدُ ذلك الصوتَ

الذي كان يُرتّبُ

فوضى قلبك...

أبوك لم يكن رجلاً

كان وطنًا...

وكان ظلًّا

إذا احترقت الطرقاتُ

وكان بابًا لا يُغلقُ

حين تُغلقُ كلَّ الأبواب...

من سيقولُ لك الآن :

لا تخف...؟

من سيمسحُ

عن جبينك

تعبَ الأيام...؟

ويقول :

انفض ياأبني...؟

يا سعدُ...

الفقدُ ليس موتًا عابرًا

الفقدُ حفرةٌ في الروح

لا يملؤها الزمن...

إنه أن تفرح

فتشعر أن الفرحة تنجح

ولا تجدُ عينًا

تلمعُ فخرًا بك...

أن تتكئ فلا

تجدُ الكتف...

يا سعدُ...

أبوك الآن

في مكانٍ لا وجع فيه

لكن وجعك أنت

هو الذي لا يهدأ...

فابكِ أباك كما تشاء

فالرجالُ العظام

يكون حين

يسقطُ الآباء...

وقل له :

لم تمت بل رحلت

أنت تسكنني

في صوتي...

في كلِّ دعاءٍ يخرجُ

من صدري إليك...

نم قرير العين

يا أبا سعد...

فولدك ما زال واقفاً

لكنّه من الداخلِ

منكسرٌ حدَّ السماء...

وفي آخرِ الليلِ يا أبي

حينُ يهدأ كلُّ شيءٍ

أجلسُ وحدي

أعدُّ الغيابَ كأنَّه

جرْحٌ لا يلتئم

أناديك...!

فلا يعودُ

سوى الصدى

وأمدُّ يدي...!

فلا تمسكُها يدك

فأفهمُ أخيراً...!

أن بعضَ الفقد

لا يُعوّض...

ولا يُحتمل...

رحلت...

وأخذتَ معك

نصفَ روحي...

وتركتني أعيشُ

بنصفِ قلبٍ

ونصفِ حياة...

سلامٌ عليك

يا أبي...

يومَ كنتَ ملجئي

ويومَ صرتَ وجعي

ويومَ ألقاك...

فأبكي في صدرك طويلاً

كأني لم أبك...

من قبل...

وجعُ الغيابِ

لم تنطفئِ الأمُّ

في قلبك

وبقيتَ تمشي...

ونصفُ العالمِ كان

في حضنها...؟

أمُّك لم تكن

امرأةً عابرةً...

كانت الدفءَ

حين يبرد كلُّ شيء

والدعاء الذي يسبقك

إلى الله...

والعين التي لا تنام

حتى تنام أنت مطمئناً...

ياسعدُ...

من لوجعك الآن

إذا اشتدّ...؟

من يمسحُ عن روحك

هذا التعب الصامت...؟

من يقول لك :

أنا هنا...

فتصدق أن الدنيا

ما زالت بخير...؟

رحلت أمك...

ورحلت معها الطمأنينة

سقط ذلك السقف

الذي كان يحميك

من الانكسار...

أمك هي التي كانت

ترى فيك ما لا تراه أنت

وتخاف عليك

من حزنٍ

لم يأتِ بعد...

وتدعو لك

حتى في صمتها...

يا سعدُ...

الفقدُ حين يكونُ أمّا

لا يُشبهُ شيئاً

إنه وجعٌ بلا صوت

وبكاءٌ بلا دموع

وفراغٌ لا يُملأ...

ستمُرُّ على الأشياءِ

فتجدها ناقصة

ستسمعُ ضحكك

فتشعرُ أنَّها غريبة

ستكبرُ لكنَّك لن تجدَ

من يقول :

يا صغيري...

يا سعدُ...

الأمُّ لا تُعوِّضُ

ولا تُنسى...

ولا يغلقُ بأُجها

في القلب أبداً...

فابكِ...

وابكِ كثيراً

فهذا الحزنُ

ليس ضعفاً

بل وفاء...

وقل لها :

يا أمّي...

رحلتِ جسداً

لكنك تسكنين

نبضي...

صوتي...

دعائي...

وفي كل خطوة

أخطوها نحو الحياة...

نامي بسلام

يا أمَّ سعد...

فولدك ما زال واقفاً

يحمل قلباً

يناديك في كل ليلة

يا أمّي ...

أرفعُ كفّي

ولا أعرفُ

ماذا أطلب...؟

فأنا لا أريدُ شيئاً

من الدنيا... سواك

أبكيكِ بصمت

كأنّي أخافُ

أن يوقظَ البكاءُ

غيابكِ أكثر...

وأهمسُ :

عودي ولو حلمًا

فأنا تعبْتُ

من الاستيقاظِ بدونك...

وتينُ القلبِ

أيُّ قلبٍ...

هذا الذي يتَّسعُ

لكلِّ هذا الفقد...؟

أخُّ يرتقي شهيداً...

وذكره تنزلُ عليك

كلَّ ليلةٍ

كنجمةٍ موجوعة...

عبدُ الرحمن...

لم يمت...

بل صعدَ أعلى

من الحزن...

وترك في صدركَ

اسماً لا يُنادى

دونَ وجع...

كنتَ تناديه :

أخي...

فكان يجيءُ كالعمر

واليومَ تناديه

فيجيءُ الصمتُ...

يا سعدُ...

كيف احتملتَ

أن ترى الغيابَ بعينيك...؟

كيف أقنعتَ قلبك

أن الذي كان

يضحكُ معك

صارَ حكايةً تُروى...؟

استُشهدَ وكأنَّ السماءَ

احتاجتهُ أكثرَ

وكانَّ الأرضَ

ضاقت بنقائه...

فأخذتهُ إلى حيثُ

لا خذلان...

يا سعد...

الفقد حين يكون أخا

هو ضلعٌ يُكسرُ

في الروح...

ومهما طال الزمنُ

يبقى الألمُ واقفاً

كظلٍّ لا يغيب...

لكنّك لم تتركه يموت

سميت ابنك

عبد الرحمن...

كأنك تقول للغياب:

لن تأخذه

مني مرتين...

أيُّ وفاءٍ هذا...؟

وأيُّ وجعٍ

يُعيدُ الاسمَ طفلاً

كي لا يشيخَ

في الذاكرة...؟

الآن حين تنادي

ابنك عبد الرحمن

يرتجف قلبك مرتين:

مرةً لأنه ابنك

ومرةً لأنه أخوك...

يا سعدُ...

أخوك لم يرحل

هو في اسمٍ يتردد

وفي دمعةٍ لا تخون

وفي قلبك...

حين يضيقُ ولا يتكلم...

اصبر فالشهداء

لا يُفقدون

بل يُرفعون...

لكنّ الذين بقوا

هم من يحملون الوجد...

وفي لحظةٍ

حين يضحكُ

ابنك عبد الرحمن

ستنظرُ إليه طويلاً

ثم تبكي...

لأنّك أدركتَ

أنّ الحياةَ أعادت

لك الاسم...

لكنّها لم تُعد

لك الأخ...

فتهمسُ بصوتٍ مكسور:

يا عبدَ الرحمن...

اثنانٍ في قلبي

واحدٌ بين يديّ...

واخر لا تصلُ إليه

يدٌ ولا نداء...

حُبُّ يُشْبِهُ الْعِرَاقَ

فِي قَلْبِهِ...

لَمْ تَكُنْ بَغْدَادُ مَدِينَةً

بَلْ كَانَتْ نَبْضًا أَوَّلَ

وَصَوْتًا يَسْبِقُ الْكَلَامَ

وظلاً لا يغادرُ الذاكرةَ

ولو غادر الجسدُ المكانَ...

كَانَ يُحِبُّ الْعِرَاقَ

كَمَا يُحِبُّ

الْإِنْسَانُ جَذَرَهُ

لا يراه كلَّ يوم...

لكنّه يعرفُ

أنّه لو انقطع

انكسر كلُّ شيء...

يا بغداد...

يا أولَ الملامحِ

في الوعي

يا مدينةً...

إذا ذُكرتِ

ارتجفَ القلبُ

دون إذن...

فيكِ تعلّم أن الطينَ

يمكن أن يُنبِتَ صوتًا

وأن الحروفَ

يمكن أن تُصبحَ

وطنًا آخر...

وأن الوجعَ

ليس نهايةً

بل بدايةُ حكاية...

وكأن شط العرب

ليس نهرًا

بل ذاكرةً تمشي

وصوتًا لا يُقال

وحنينًا إذا مرَّ

في القلب

أبكاه بصمت

كلما ابتعد...

كان الماء يقترب

منه أكثر...

كأنه لا يقبلُ

أن يُغادره أحدٌ

إلا ويعود إليه

في العراق...

تعلم أن الحبَّ

ليس كلمة

بل موقف...

وأن الانتماءَ

ليس شعارًا

بل دُمّ يمشي

في العروق

بلا استئذان...

ثم جاء الإعلام

ليس كحرفةٍ اختارها

بل كنداءٍ

اختاره قبل

أن يعرف اسمه...

كان يرى الكاميرا

عينًا ثانية للعراق

ويرى الميكروفون جسرًا

بين الوجدِ والعالم...

لم يكن ينقلُ الأخبار

بل كان يحملها على قلبه

يمرُّ بها من داخله أولًا

ثم يضعها أمام الناس

نظيفةً من الكذب

ثقيلةً بالصدق...

يا مهنة الإعلام...

كم مرّت بك

من وجوه...؟

لكن قلّة

جعلتك رسالةً

وليس وظيفة...

هو لم يكن يبحثُ

عن شهرة...

بل عن أثرٍ...

يبقى بعد انطفاء الضوء

عن صوت

لا يُشبه الضجيج

بل يُشبه الحقيقة

حين تُقال بصعوبة...

وفي كل خبرٍ

كان هناك

عراقٌ صغيرٌ...

وفي كل كلمةٍ

كان دجلةُ والفرات

يعبرُان بصمت...

وفي كل ظهورٍ

كانت بغدادُ

تقفُ خلفه

كأَمْ لا تتعب

من الانتظار...

كان يحبُّ العراق

ليس لأنه جميلٌ

بل لأنه

عميق...

موجوع...

صادق...

يشبهه...

و حين يغيب

عن الوطن...

لم يكن يغيب عنه

بل كان الوطنُ

يسكنه أكثر...

في باريس...

وفي كل مدينةٍ بعيدة

كان يحمل بغدادَ

كأنها نبضٌ في صدره

لا يُرى لكنّه يُحسّ...

كان إذا تكلم

عن العراق

لا يتكلم كإعلامي

بل كابنٍ...

يحاول أن يكتب

أمه للعالم

دون أن يخون ملامحها...

يا دجلة...

يا مرآة الطفولة الأولى

يا ماءً لا يتغير

مهما تغيّر

من حوله...

اشهد أنه

لم ينكر يوماً

ولو أنكرته

كل المسافات...

يا بغداد...

يا بداية الصوت ونهايته

يا مدينة...

تعلم أبناءها

كيف يكون الحنين

وطناً ثانياً...؟

ومضى بين...

الكلمة والوطن

والصورة والذاكرة

والإعلام وقلب لا يزالُ

يقول:

العراق أولاً...

فإن سألوا:

من هذا الذي

يحبُّ العراق...

بهذا الشكل...؟

فقولوا:

سعدُ...

هو صوتُ

خرج من بغداد...

ولم يغادرها يوماً

حتى وهو بعيد...

لأنه لم يكن

يعيش العراق كبلد

بل كقلبٍ إذا توقف...

توقف كلُّ شيء...

اقتحامُ العالمِ

لم يَكُنِ الخروجُ سفرًا...

بل كان اختبارًا

اختبارًا للصوتِ

حين يُنتزعُ

من بيئته الأولى...

ويُلقي بهِ

في فضاءٍ لا يعرفُهُ

فضاءٍ لا يكفي فيهِ

أن تكونَ صادقًا

بل يجب أن تكون مُقنعًا...

لم تُعدْ بغدادُ حوله

لكنها لم تُغادره...

كانت فيه

في نبرته...

في اختياره للكلمات

في تلك الوقفة القصيرة

قبل أن يتكلّم

كأنها تقولُ له دائماً:

تذكّر من أين بدأت...؟

الخروجُ إلى العالم...

ليس أن تصل

بل أن تُعاد صياغتك...

كلُّ شيءٍ تغيّر:

الإيقاع...

السُّرعة...

الوجوه...

والتوقّعات...

لم يعد هناك

متّسعٌ للتجربة البطيئة

ولا للبحث الطويل

عن النبذة...

كلُّ شيءٍ يُقاسُ باللحظةِ

وكلُّ لحظةٍ

قد تصنعُك...

أو تُسقطُك...

وفي قلبِ هذا الزحامِ...

وقفَ ليس

كغريبٍ تائهٍ

ولا كمندفعٍ يريدُ

أن يُثبتَ نفسه

بل كصوتٍ

يعرفُ أنه جاءَ ليكونَ...

الإذاعاتُ والشاشاتُ

لم تكن مُجَرَّدَ محطّاتٍ

بل كانت ساحاتٍ...

تُختَبَرُ فيها الكلمةُ

ويُقاسُ فيها الصوتُ

وتُكشَفُ فيها النوايا...

هنا لا يكفي

أن تقرأَ الخبرَ

بل يجبُ أن تفهمَهُ

أن تعيشَهُ

أن تمنحَهُ من إحساسِكَ

ما يجعلُهُ يَصِلُ

ليس كجملَةٍ...

بل كأثرٍ...

في البداياتِ...

كان الصمتُ حاضراً...

ليس صمتَ الخوفِ

بل صمتَ المراقبةِ

صمتَ مَنْ يريدُ

أن يرى كلّ شيءٍ

أن يفهمَ الإيقاعَ

أن يعرفَ...

كيف تُقالُ الكلماتُ...؟

حين تكونُ أمامَ العالمِ...

الكاميرا...

لم تكن عدسةً

كانت عينًا

ترى ما وراءَ الوجهِ

وتسألُ دون أن تنطقَ:

هل أنتَ حقيقيٌّ...؟

والميكروفونُ...

لم يكن أداةً

بل ميزانًا...

يُظهِرُ الْفَرْقَ

بَيْنَ صَوْتٍ عَابِرٍ

وَصَوْتٍ يَحْمِلُ مَعْنَى...

فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى

عَادَ إِلَى نَفْسِهِ...

وَكُلَّ مَا تَعَلَّمَهُ

وإِلَى بَغْدَادَ

وَدَجَلَةَ وَالْفُرَاتِ...

وإِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ

الَّذِي كَانَ يَسْمَعُ

أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ...

ثمّ... تكلمّ...

لم يكن الصوت مرتفعاً

لكنّه كان واضحاً

كأنّه يعرف طريقه

دون ارتباكٍ...

وهنا... بدأ التحوّل...

لم يعد مجرّد شابّ

يبحث عن فرصةٍ

بل صار جزءاً من المشهدِ

جزءاً من تلك المنظومةِ

التي تُخاطبُ العالمَ

كلَّ يومٍ...

لكنَّ الفرقَ

كان في العمقِ...

فبينما كان الكثيرونَ

يمرّونَ عبرَ الشاشةِ

كان هو...

يتركُ شيئًا خلفه

شيئًا لا يُرى

لكن يُحسّ...

كأنَّ كلَّ كلمةٍ يقولها

تحمِلُ وزنًا إضافيًا

وزن التجربة

وصدق الانتماء...

الليالي هناك...

لم تكن سهلة...

أخبار تتلاحق

أحداث ثقيلة

مدن تسقط

وأصوات تضع...

وكان عليه

أن يقول...

أن ينقل...

لكن دون أن

يفقد إنسانيته

أن يكون مهنيًا

دون أن يتحوّل إلى آلة...

وهنا...

ظهرت الحنكة...

ليس في طريقة الإلقاء

بل في الاختيار:

ماذا يقول...؟

كيف يقول...؟

ومتى يصمتُ...؟

لأنّ الإعلامَ الحقيقيّ...

ليس ما يُقالُ

بل ما يُتركُ أيضًا...

في كلّ نشرةٍ...

كان هناك امتحانٌ

وفي كلّ امتحانٍ...

كان يقتربُ أكثرُ

من صوتهِ الحقيقيّ...

ذلك الصوتُ...

الذي لا يُشبهُ أحدًا

ولا يحاول أن يُشبه...

صوتٌ خرجَ

من بيئةٍ عميقةٍ

وعبرَ تجربةٍ صادقةٍ

ليصلَ إلى مكانٍ

يليقُ به...

العالمُ الآنَ يسمعُ

لكن ما يسمعهُ

ليس مُجردَ أخبارٍ

بل انعكاسٌ لصوتٍ...

تعلّم طويلاً

كيف يكون مسؤولاً...؟

وتحقّق العبور...

ليس عبور الجغرافيا

بل عبور الذات...

من مرحلة البحث

إلى مرحلة التأثير...

ومن احتمال الصوت

إلى حضوره الكامل...

ومع كلّ ذلك

بقي العراق...

ليس في الخلفيّة

بل في المقدمة...

يمرُّ مع كلِّ جملةٍ

يظهرُ في كلِّ نبرةٍ

كأنَّ الصوتَ

يقولُ للعالم:

أنا سعدٌ

أنا هنا...

لكنني لستُ وحدي...

ولم يعدْ مُجرَّدَ إعلاميٍّ

بل صارَ صوتاً

يحملُ قضيةً

ويمنحها حضوراً...

لم يكن نهاية الطريق

بل كانت بداية الامتداد...

امتداد الصوت

من محليته إلى عالميته

من ذاكرته إلى أثره...

وهنا...

أدرك أخيراً:

أنّ الخروج إلى العالم

لا يعني أن تبعد

عن جذورك

بل أن تحملها معك

بطريقة تجعل العالم

يراك من خلالها...

وهذا ما حدث...

فلم يعد الصوت

يبحث عن مكان

بل صار المكان

يتشكل حوله...

بدأت الحكاية

تُروى بصوت

يسمعه العالم...

القبابُ الذهبية

ليس هذا الكلامُ

تَحِيَّةً عابرةً من سعد

ولا مُجاملةً طريقٍ

يمرّ بين مدينتين...

بل هو ارتجافُ معنى

حين يمرّ من قلبٍ يعرف

أنّ الأرضَ هنا

ليست أرضاً

بل ذاكرةٌ تمشي

على هيئة نور...

في هذا الامتداد

بين كربلاء والنجف

لا تُقاسُ المسافاتُ

بالكيلومترات...

بل تُقاسُ بمدى

ما ينهضُ في الداخل

من يقينٍ حين

تُذكرُ الأسماء

ومن خشوعٍ

حين يُستدعى المعنى...

لا تكونُ الزيارةُ

حركةً أقدام

بل حركةً روح

تخرجُ من ضيقِ اليوم

إلى اتّساعِ التاريخ

ومن عابرِ اللحظة

إلى ثباتِ الفكرة...

كربلاء...

ليست مدينةً تُزار

بل امتحانٌ أبديٌّ

للإنسانِ حينَ يختار...

حيث لا يبقى

الصمتُ محايداً

ولا يقفُ الزمنُ

على الحياد

يُختبرُ المعنى

الأعلى للوقوف...

كلُّ خطوةٍ هناك

سؤالٌ يُطرح

على الضمير:

هل تقفُ حين

يجبُ أن تقف...؟

أم تمضي حين يُطلبُ

منك أن تبقى...؟

وفي المقابل...

النجف...

ليست مدينة علم

بل عقل مفتوح

على الزمن

ميزان دقيق للعدالة

حين تتشكّل الكلمات

ومعنى أن يكون للحقّ

وجه لا يتبدّل...

وَحِينَ يُذَكَّرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ع

لَا يُسْتَدْعَى اسْمُ

بَلْ يُسْتَدْعَى

مِيزَانٌ لَا يَمِيلُ

وَعِدَالَةٌ تَمْشِي بِلَا ظِلٍّ

وَفِكْرٌ يَرَى الْإِنْسَانَ

قَبْلَ الْحُكْمِ...

وَحِينَ يُذَكَّرُ الْحُسَيْنُ ع

لَا تُرَوَى قِصَّةُ

بَلْ يُفْتَحُ بَابُ الْفِدَاءِ

على مصراعيه

ويُستعادُ معنى

أن تكونَ الكرامة

أعلى من الحياة نفسها...

وحين يُذكرُ

أبو الفضل العباس ع

يُستدعى الوفاءُ

في أقصى درجاته

ذاك الوفاء

الذي لا يُقاسُ بالكلمات

بل بما يُتركُ في القلب

من انكسارٍ جميل

أمام معنى لا يُشبهه

إلا نفسه...

تحوّل الزيارة

من طقسٍ إلى وعي

ومن دعاءٍ فردي

إلى خطابٍ إنسانيٍّ واسع

ومن لحظةٍ عبور

إلى إقامةٍ داخل المعنى...

في الطريقِ بينهما

لا شيء عادي...

حتى الهواء يبدو

أكثر حضوراً

وكأنّ الأرض نفسها

تتنفّس ببطءٍ

احتراماً لما يُقالُ

في الصمت...

وحفاوةُ الأصدقاء...

ليست تفصيلاً جانبياً

في الحكاية

بل قلبُها الإنساني...

حين يُفتَحُ الباب

قبل اليد

ويُقدَّمُ المعنى

قبل الطعام...

وتسبقُ المحبة

كلَّ ترتيبٍ اجتماعي

فإننا أمام كرمٍ

لا يُشبهه الكرم...

بل يُشبهه الذاكرة

حين تتكلَّم...

لا يُسألُ عن الغياب

بل يُحتفى بالحضور

ولا تُحسبُ المسافات

بل تُقاسُ النوايا...

والاعتذارُ الرقيق

لمن لم تُسعفهم الأيام...

ليس اعتذارُ الغياب

بل وعدُ الحضور القادم

لأنّ القلوب

التي تعرفُ الصدق

لا تؤجّلُ اللقاء

بل تؤمنُ به...

و"نعودُ قريبًا إن شاء الله..."

ليست جملةً سفر

بل إعلانُ إيمانٍ خفيٍّ

بأنَّ الطرقَ

التي تبدأ من هنا

لا تنتهي...

لأنَّها طرقٌ

تُروى باليقين

وتُسقى بالذاكرة

وتكبرُ كلما ابتعدنا

عنها أكثر...

لا يبقى في المشهد

إلا حقيقة واحدة:

أنّ الزيارة ليست

انتقالاً في المكان

بل انتقالاً

في الإنسان نفسه...

وأنّ من يمرّ

بين كربلاء والنجف

لا يعودُ كما كان...

بل يعودُ وقد أصبح

أقربَ إلى المعنى...

وتكونُ الكلمات

أكثرَ من تحية

وتكونُ المحبة

أكثرَ من إحساس

وتكونُ الزيارةُ

قصيدةً تمشي

على الأرض

وتتركُ في القلب

أثرًا لا يُمحى...

الكاظمية مقام الروح

في حضرة بغداد...

حين تنحني الأزمنة

وتخفض التيجان

رؤوسها احتراماً

لاسم لا يزول

نقف ليس كزائرين...

بل كأرواح تستعيد

ذاكرتها الأولى...

لا تكون اللغة

مُجَرَّدَ حُرُوفٍ

بَلْ تَتَحَوَّلُ

إِلَى خُشُوعٍ

وَلَا تَكُونُ الذَّاكِرَةُ سَرْدًا...

بَلْ تَتَحَوَّلُ

إِلَى وَقُوفٍ دَاخِلِيٍّ

أَمَامَ مَعْنَى أَكْبَرَ

مِنَ الْكَلَامِ...

مُوسَى بْنُ جَعْفَرِ الْكَاسِمِ ع

سَلِيلُ النَّبِوَّةِ...

وإمامُ الصبر...

الذي لم يَنكسر

وسجينُ العدالة

الذي حوّل الجدران

إلى مرآةٍ للحق

والظلامَ إلى بصيرة...

لم تكن سجونهُ نهاية

بل بدايةً معنًى

جديدٍ للصمود...

ومن لم تكن قيودُهُ

حدًّا للحياة

بل شهادة

على أنّ الروح لا تُحبس...

في دهاليز الظلم...

لم يكن جسداً يُعذب

بل كان زمناً يُختبر

وكانت الإنسانية كلّها

تُسائل نفسها:

كيف يمكن للحق

أن يبقى حيّاً

حين يُحاصر...؟

لكنهُ بقي

لم يَنكسر...

لم يُساوم...

لم يُبدّل وجهَ الحقيقة

بل رفعها بصبره

حتى صارت أعلى

من الجدران...

كان السجن

محرابًا آخر

وكانت القيود

حروفَ تسبيحٍ

لا تنقطع...

وكان الصمت

أعلى من صخبِ الطغاة....

تعلّمنا منه

أنَّ الصبرَ

ليس انكسارًا...

بل قمةُ القوة

حين تختار

ألا تُشبه الظالم

وأنَّ كظمَ الغيظ...

ليس تراجعًا

بل سيادةً أخلاقية

تسقطُ بها العروش

من الداخل...

قبل أن تسقط

من الخارج...

الإمام الكاظم ع

علّم العالم

أنَّ الإنسانَ

حين يملك نفسه

يملك كلَّ شيء...

ثم تمتدُّ الذاكرة...

إلى النور

الذي لا ينفصل

عن النور...

الإمام محمد الجواد ع

الامتداد الطاهر

والبرهان المبكر

والعلم الذي

تحدّى الزمن...

حين ظهر

في عمرٍ قصير

ليقول للعالم:

إِنَّ الإمامة

ليست زمنًا

بل يقينًا...

كان حضورًا

لا يُقاس بالسنوات

بل يُقاس بالعمق

ولا يُقاس بالعمر

بل بما يتركه من أثر

في الفهم الإنساني للحق...

وبين الكاظم والجواد ع

يمتد خطُّ من نور

لا يُقرأ كتاريخ

بل كمسارٍ

أخلاقيّ كامل

يعلم الإنسان

كيف يكونُ حرّاً

حتى وهو بين القيود...؟

وكيف يكونُ عالماً

حتى وهو في سنّ

صغير ظاهري...؟

وفي هذا المقام العظيم

تتقدّم الكلمةُ

إلى الحاضر

لا تُغادر الماضي

بل تستمدّ منه المعنى...

واعترافاً بأنّ العودة

إلى الوطن...

ليست حركةً جسد

بل قرأُ روح...

عودةُ العارف بالغرابة

الذي لم تُنسه

المسافات اسمهُ

ولم تُعَيِّهُ المنافي

عن جذره الأول...

من حمل العراق في صوته

كما يُحمل المعنى

في الجملة...

وعاد ليضع خبرته

في حضرة الوطن

ليس زائراً...

بل ابناً يستعيد

مكانه الطبيعي

في الذاكرة...

العراق...

لا يستقبل الأشخاص

بل يستقبل النوايا...

ويحتفي بكل عقل

قرر أن يعود

وبكل قلب

أدرك أنَّ البعد

ليس قدرًا نهائيًا

بل امتحانٌ للوفاء...

في أرض الأئمة ع

وفي بغداد التي تعرف

معنى الصبر...

لا تكون العودة

حدثاً عابراً

بل تجديدٌ عهد...

عهدٌ بأن يبقى العراق

أكبر من المسافات

وأقوى من الغياب

وأوفى لأبنائه

مهما طال الطريق...

الكاظم والجواد ع

الصبر حين يصبح موقفًا

والعلم حين يصبح نورًا

والإنسان حين يرتقي

ليكون أقرب

إلى الحق من الخوف...

وكل من جعل

من الألم مدرسة

ومن السجن رسالة

ومن الصمت صرخة

تهزّ ضمير التاريخ...

ما تعاقب الليل والنهار

وما بقي في الأرض قلب

يعرف معنى الولاء

وعقل يميّز

بين القوة والحق

إلا وبقي هذا السلام

حاضرًا في الوجدان...

لا ينطفئ ولا يزول...

سيرةُ مواقفٍ

لم تكن الحقيقةُ فكرةً

بل كانت جرحاً

يبحث عن لسان

وكانت البلادُ

تتعلم كيف تنطقُ

من فمٍ من لا يخاف...؟

تتقاطعُ الأسئلةُ مع الرماد

خرجَ صوتٌ...

لا يشبهُ أصواتَ القاعات

ولا يهادنُ زخرفةَ الكلمات

بل يشبهُ ما قبلَ الولادة

يشبهُ الصدقَ

حين يكونُ عارياً

إلا من ضميره

سعدُ...

ليس اسماً عابراً

في دفترِ المهنة

بل علامةٌ موقفٍ

حين تختلطُ

الضوضاءُ بالحقائق

رجلٌ إذا قال :

انحازت اللغة إلى نفسها

وإذا صمتَ

ارتبكتِ الشاشاتُ

من فرطِ ما كانت تخفيه

أيها الصوت...

كيف لك أن تمشي

فوق هذا الكمّ

من الانكسار

ولا تتعثر...؟

كيف تحملُ العراقَ

في جملةٍ واحدة
ثم تمضي كأنك
لم تحمل جبلاً...؟
في الإعلام...
هناك من يكتب ليُسمع
وهناك من يُسمع
لأنه لا يكتب
إلا ما ينجو
من ضميره...
سعدُ كان من النوع

الذي لا يمرّ عبر الفلتر

بل يعبر مباشرةً

من القلب إلى العن

دون إذنٍ من أحد...

يا رجلَ المواقف...

حين ينام الآخرون

على وسادةِ المجاملة

كنتَ تستيقظُ

على خشونةِ السؤال...

وحين كانوا يجمّلون الحقيقة

كنتَ تتركها كما هي

مُتعبة لكنها حيّة

لم تكن الشاشةُ

عندك إطاراً

بل ساحةَ امتحان

لا مكان فيها للزيف...

ولا وقت فيها للمراوغة

وكَلِّما أرادوا ترويضَ اللغة

أطلقَتها كما تُطلقُ

الريحُ من قيدها...

لتقول ما لا يُقال

وتكشف ما لا يُراد

له أن يُرى

كم مرةً حاولوا أن يجعلوا

الصوت أقلَّ حرارة

فزاد اشتعالاً...؟

وكم مرةً أرادوا

للحقيقة أن تُخَفَّف

فازدادت وضوحاً

حتى أوجعت

في المواقف الكبيرة...؟

لا تحتاجُ الكلماتُ

إلى زينة...

تكفيها شجاعةُ

من ينطقها

وتكفيها يدٌ لا ترتجف...

حين يُطلب منها أن تختار

بين الصمت والكرامة

يا سعدُ...

يا من جعلتَ

من الميكروفون

ميزاناً للضمير

لا للضجيج...

ومن الخبرِ شهادةً

لا رواية...

كيف استطعتَ

أن تمشي

بين كل هذا الانقسام

دون أن تفقدَ وجهك

في مرآةٍ أحد...؟

كانوا يقولون:

الإعلامُ حِيادُ

وأنت كنت

تقول بصمتك:

الحِيادُ حين يُقتلُ

إنسانُ خيانة

وكانوا يطلبون

من الكلمة أن تتأدب

وأنت كنت تعلم

أن الكلمة إذا تأدبت

أكثر من اللازم ماتت...

في زمنٍ تتشابه

فيه الأصوات...

كنتَ اختلافاً

لا يمكن نسخه

كنتَ نبرةً لا تُستعار

ولا تُشترى

ولا تُستنسخ...

كنتَ ذلك النوع

من الحضور

الذي يربكُ الذين اعتادوا

على التصفيق الجاهز

يا من حملت العراقَ

في حنجرتك...

ليس كخريطة

بل كمسؤولية...

كيف للإنسان

أن يحمل وطناً

ثم يعود كل مساءٍ

كما هو...؟

لم تكن قصتك

مع الإعلام وظيفة

بل كانت مواجهة

بين ما يجب أن يُقال...

وما يريدون دفنه

في الصمت...

وكانت كل حلقة

كأنها معركة صغيرة

بين الحقيقة

ومحاولات إخفائها...

وحين يشتدّ الضجيج

لا يعود للصوت قيمة

إلا إذا كان

صادماً للسكوت...

وهكذا كنت

صوتاً لا يُجامل...

ولا يتلَوْن

ولا يطلب إذنًا

من أحد ليكون صادقاً

يا رجل الموقف...

فيك شيءٌ

من صلابة الأرض

وشيءٌ من قلق السماء

وشيءٌ من ذاكرة

لا تنسى...

وحين تتكلم

يشعر الناس

أن العراق يتكلم

ليس شخصاً واحداً

لم تكن بطلاً في رواية

بل كنت اختباراً

حيًا لمعنى...

أن تكون الكلمة مسؤولة

وحين يعلو الزيف

تظهر أمثالك لا لتصرخ

بل لتعيد ترتيب المعنى

في فوضى الضجيج...

كم من مرة

ظنّوا أن الحقيقة

يمكن تأجيلها

ففاجأهم بأنها

لا تؤجّل...؟

وكم من مرة أرادوا

للصوت أن يهدأ

فزاد وضوحاً...

حتى صار يوجع...؟

يا سعدٌ...

لسنا أمام اسم

بل أمام حالة

حالة من الصدق...

حين يصبح علناً

ومن الموقف حين

يصبح سلوكاً يومياً

ليس استثناء فيه

ولا تراجع...

حين تمشي

لا تمشي وحدك

يمشي معك

ثقل الأسئلة...

التي لا تريد إجابات جاهزة

ويمشي معك صدى

الذين لم يُسمعوا

ويعشي معك الوطن

حين يُنطق لأول

مرة بلا رتوش

وإذا كانت الكلمات

تُقاس بما تركه

من أثر...

فإنك لم تكن تقول...

بل كنت تُحدث

اهتزازاً في المعنى

يجبر الجميع

على إعادة التفكير

لا يبقى من الإعلام

إلا ما كان صادقاً

ولا يبقى من الصوت

إلا ما لم يُساوم

ولا يبقى من الرجال

إلا ما لا يُشتري

كنت دائماً في جهة

ما لا يُشتري...

فامضِ كما أنت

كصوتٍ يعرف

أن الحقيقة

ليست خياراً...

بل قدرٌ ثَقِيل

يَحْمِلُهُ مَنْ يَسْتَطِيع

ويهرب منه

من يخاف...

وإذا سُئِلَ التاريخ يوماً:

من بقي حين

ضاعت الأصوات...؟

سنقول :

بقي الذين لم يبدّلوا وجوههم

حين تبدّلت البلاد

وبقي الذين جعلوا

من الكلمة موقفاً

ليس زخرفة...

وبقي صوتٌ

بل كان وطناً

حين يتكلم...

نشيدُ الأحلام

يا سعدُ...

أيُّ حلمٍ

هذا الذي يسكنُكَ

حتى صارَ الليلُ

أقلَّ اتساعًا

من رؤاك...؟

وأيُّ فجرٍ

هذا الذي تمشي إليه

كأنك تعرفُ الطريقَ

قبل أن يُخلق الطريق...!

كنتَ برعماً

لكنَّ الحلمَ

كان أكبرَ

من العمر...

كان ينامُ في عينيكَ

ويستيقظُ في صوتك

وكانتِ السماءُ

كلَّما ضاقت

تتسعُ بك...

يا سعدُ...

لم تكن تحلمُ كغيرك

بل كنت تُعيدُ

تعريفَ الحلم

تزرعهُ في صمتك

وتسقيه من صبرك

حتى إذا أثمر

أدهشَ العالم...

حلمتَ بالعراقِ

ليس كخريطةٍ تُرى

بل كقلبٍ يُسمع

وصوتٍ يعبرُ البحار

ولا يفقدُ ملاحه...

وحلمتَ بالكلمة

أن تكونَ وطنًا

أن تكونَ جسرًا

بين روحٍ وروح...

أن تكونَ نورًا

حين ينسى

الضوءُ نفسه...

يا سعدُ...

في كلّ حلمٍ لك

كانت هناك

مدينةٌ تولد

وكان هناك

أفقٌ يُعادُ رسمه

وكان هناك إنسانٌ

يتعلّم كيف

يكونُ أجمل...؟

حلمت أن تصل

لكنّك حين وصلت

اكتشفت أن الحلم أكبر

فمشيتَ أبعد... .

أبعد من المسافة

وأقربَ من المعنى... .

وفي باريسَ

حين نامت الشوارعُ

على ضوءها

كان حلمك مستيقظاً

يكتبُ بالعربيةِ

ما تعجزُ عنه اللغات... .

يا سعدُ... .

أحلامك لم تكن نائمة

كانت تمشي

كانت تتكلم

كانت تُصافحُ العالمَ

باسم العراق...

أيُّ رجلٍ أنتَ

حتى صار الحلمُ واقعًا

والواقعُ بدايةً

حلمٍ جديد...؟

أيُّ سرٍّ فيكَ...!

حتى إذا قلتَ :

غداً...

أجابك الزمن:

حاضر...

يا سعدٌ...

علّمنا كيف نحلم...؟

كيف نجعلُ

من التعبِ سلماً...؟

ومن الغربةِ نافذة

ومن الصوتِ وطناً...

أحلامك ليست

حكاية تُروى

ولا سطرًا عابرًا

في كتابِ الوقت

بل طريقٌ يُمشى

بخطى الذين

لا يخافون العتمة

ولا يتراجعون

حين يطول الانتظار...

أحلامك نشيدٌ يُغنى

لكنّه ليس لحناً يُنسى

بل صوتٌ

يسكنُ الأرواح

ويوقظُ في القلبِ

معنى البقاء...

حين يوشكُ كلُّ شيءٍ

على الانطفاء...

أحلامك قدرٌ يُكتبُ

ليس بحبرٍ عابر

بل بحروفٍ لا تنكسر

حروفٍ تعرفُ الطريق

حتى حين تضيعُ الخرائط

وتؤمنُ بأن الوصول

ليس صدفة

بل إيمانٌ لا ينحني...

فامضِ كما أنت

لا تُبدِّل وجه الحلم

ولا تُساوم على الضوء

حين تشتدُّ العتمة

كن كما خُلقتَ

أول مرة :

يقينًا يمشي

وصوتًا لا يشيخ...

امض...

ولو تعبَ

من طول المسافة...

فالمسافات تُهزَمُ بخطوة

والخطوة تُولدُ

من إصرار

والإصرارُ وطنٌ

لا يعرفُ السقوط...

كن حلمًا لا ينتهي
حين تنتهي الحكايات
وكن بدايةً
حين يظنّ الجميعُ
أن النهاية قد كُتبت...

وكن صوتًا

إذا قال:

أكون... كان

ليس وعدًا مؤجّلًا

ولا رجاءً معلقًا

بل حضورًا

يفرضُ نفسه

كما تفرضُ

الشمسُ ضياءها

على وجه الفجر...

كن أنت...

حين يتعبُ الآخرون

من المحاولة...

وابقَ أنت... ..

حين يختارُ

الكثيرُ الانطفاء... ..

فالأحلامُ التي تشبهك

لا تذبل... ..

والأصواتُ التي تحملُ

صدقك لا تغيب

والطرقُ التي تبدأ بك

لا تنتهي... ..

لأنك لستَ عابراً

في هذا العالم

بل أثر إذا مرّ

غير معنى الطريق...

ما بعدَ الحبرِ

عندما ينتهي

الحبرُ ظاهرًا

يبدأُ المعنى...

تسقطُ الكلماتُ

من فمِ الورقِ

تظل واقفةً

في حضرةِ الوطن...

يعراقُ يكتُبكَ سعد

ليس قصيدةٌ تُتلى

بل قلبٌ يَخْفُقُ

في صدورِ الكلماتِ...

ونبضٍ يتعلَّمُ

كيف يصيرُ صوتاً...؟

وصوتٌ يتعلَّمُ

كيف لا ينكسر...؟

يقفُ الصوتُ الأخير

لا يصمت بل ليُعلنَ

أنَّ الحكايةَ لم تنتهِ...

وعند تخومِ النهاية

يقفُ الحرفُ

الأخير مرتبًا...

لا يريد أن يغادر

كأنه يعرف أن الحكاية

أكبر من كتاب...

يا قلب الإعلام...

يا من حملت البلاد

على كتف الضوء

يا من لم تكن شاشة

بل شرفة

يطل منها العراق

وسرتَ بها...

بين عواصفِ العالم

دون أن تنكسر...

كيف أُغلقُ هذا الديوان...؟

وأنتَ ما زلتَ

تُفتَحُ في كلِّ نبض...؟

كنتَ تمشي

والشاشاتُ خلفك

تتعلمُ كيف تُنصت...؟

ولا شيء خلفك

إلا ظلُّ التعب

وكلُّ شيءٍ أمامك

كنتَ تمضي...

وكانت الحقيقةُ

حين تضيقُ الطرقُ

تسكنُ صوتك

وكنتَ تعرفُ

أنَّ الكلمةَ قد تكونُ معركة

وأنَّ الصمتَ

قد يكونُ هزيمة

فاخترتَ أن تكونَ الصوت

حتى حين كان

الصوتُ وجعًا...

لم تكن مذيعةً

كنتَ وطنًا

إذا ضاقَ العراقُ

اتَّسعَ فيك

وإذا تعبَ التاريخ

استراحَ على حروفك...

يا سعدُ الحكاية...

ويا اسمًا حين يُنادى

تنهضُ البلاد

لقد كتبتك القصائدُ

ليس لأنك موضوعها

بل لأنك معناها...

حملت العراق

ليس كخبرٍ عابر

بل كقضيةٍ

تمشي بين الناس

وتسألُ العالم :

هل تسمعون...؟

وكنتَ الجواب...

يا قلبَ الإعلام...

أيُّ ختامٍ يليقُ بك...؟

وأنتَ البدايةُ

كلما ظنَّ العالمُ

أنَّ الصوتَ انتهى...؟

هذا الحروف ليس نهايةً

بل محاولةً متكررة

لفهم كيف يمكنُ

لصوتٍ واحد...؟

أن يحملَ وطنًا كاملاً

كيف يمكنُ لإنسان

أن يصبحَ جسراً

تعبُرُ عليه الحقيقة

من الألم إلى العالم...؟

وكلُّ قصيدةٍ فيه

ليست إلا ظلًّا لضوءٍ

كنتَ أنتَ مصدره...

تتسعُ القصيدة لا لتصفك

بل لتلحق بك

فأنتَ أسرعُ من اللغة

وأعمقُ من الوصف

وأبقى من العناوين...

لقد مررتَ بين العواصف

دون أن تتحوَّلَ إلى غبار

وبين الانكسارات

دون أن تنحني

وبين الصمت

دون أن تتعلّم السكوت...

كنت العراق

حين ضاع العراق...

وكنت الصوت

حين خاف الصوت

وكنت الحكاية

حين تعب الرواة...

فإذا أُغلق الكتاب

فإنَّ العراقَ لن يُغَلَقَ
وإذا سكنتِ الحروفُ
فإنَّ صوتكَ لن يسكن...
س يبقى يمشي في الأزقة
ويصعدُ في النشرات
ويكتبُ نفسه
على جبين الحقيقة...
والنقطة الأخيرة
لكنّها ترفضُ
أن تكونَ نهاية

فتحوّل...

إلى فاصلة...

إلى امتداد...

إلى بدايةٍ خفيّة...

لنصٍّ لا يُغلق...

لأنّ العراق لا يُحتّم

ولأنّ الصوت

إذا كان صادقاً لا يموت...

فالكلماتُ تموتُ

إلا تلكَ التي

تُكتبُ بالوطن

والأصواتُ تغيبُ

إلا تلكَ التي

تُقالُ بالصدق...

وأنتَ لم تكنِ يومًا

مجرّدَ اسم...

بل كنتَ قلبًا

إذا نطقَ

لا يصمت

وإذا صمتَ العالم

تكلمَ العراق...

وإذا اشتعلَ

اشتعلت الحقيقة

وإذا سار

سار العراق معه...

لا نكتبُ النهاية

بل نتركها مفتوحةً

على اتّساع الوطن

ونمضي وأنتَ

أمامنا...

وفينا...

صوتًا لا ينطفئ

وقلبًا لا يصمت...

صَدَرَ لِلْمُؤَلِّفِ

صدرت للمؤلف رافد حميد فرج القاضي المؤلفات الآتية :

1. موسوعة الحقائق الساطعات ، كتاب في علم النسب،

الطبعة الأولى، 2013 م ، مطابع المستقبل ، بيروت – لبنان.

2. الحسن راية السلام ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى،

2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء –

العراق.

3. الحسين شجرة الشهادة ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى،

2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء –

العراق.

4. رسالة الحقوق للإمام زين العابدين والاعلان العالمي لحقوق

الانسان « دراسة مقارنة » كتاب في حقوق الانسان ، الطبعة

الأولى 2015 م ، مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء

— العراق.

5. مملكة النور ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2015 م ،

مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء — العراق.

6. الأحمـد الخامس، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2016 م ،

مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء — العراق.

7. الهاتف الأخير ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ،

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

8. أوتار الرسالة ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2026 م ،

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق

9. حين يغار المشمش ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ،

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

10. بلاغة ما بعد القول ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى،

2026 م مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد —

العراق.

11. رحلة الشائق ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة

دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

12. جروح ندية، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2026 م

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

13. سيريناغار، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار

السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

14. تاج الشرق، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2026 م

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

15. قناديل الصمت ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ،

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

16. عرين الطموح ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2026 م

مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق.

17. لهيب اللهجة ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة

دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد — العراق

المُحتَوَيَات

5	قَلْبُ الإِعْلَامِ
15	نُبُوءَةُ الْقَدَرِ
30	مِيْلَادُ الْمَعْنَى
43	فَجْرُ الْحُرُوفِ
53	هَدِيرُ الْعَاصِفَةِ
66	مِحْرَابُ الْمَدْرَسَةِ
82	سِيرَةُ قَلَمٍ
94	عُنْفُوَانُ الرُّوحِ

- 110 من بَغْدَادَ إِلَى كُوبَا
- 122 شَهَادَةُ الْجَمَالِ
- 136 رَمَادُ الْبِدَايَاتِ
- 148 أَرْوَقَةُ الْأَثِيرِ
- 167 نَبْضُ الْمُدُنِ
- 184 نَحْوُ السَّيْنِ
- 200 جَامِعَةُ الشُّورُبُونِ
- 215 الْبَيَاضُ يُعَانِقُ بَارِيسَ
- 232 زَوْجُ الْقَدَرِ أَنْجَبَ الثَّمَرَ
- 241 إِذَاعَةُ الشَّرْقِ
- 255 رِسَالَةُ بَارِيسَ

- إِذَاعَةُ مُونْتِ كَارْلُو الدُّوْلِيَّةِ 272 .
- التَّلْفَازُ الْفَرَنْسِيُّ 289 .
- شَاشَةُ الْعَرَبِيَّةِ 308 .
- مَعْهَدُ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ 317 .
- الْيُونِسْكُو ذَاكِرَةُ الْعَالَمِ 325 .
- سَيِّدُ الْمِنْصَّاتِ 338 .
- هَيْبَةُ الصَّوْتِ 348 .
- رَحِيلُ يَنْزَفُ 359 .
- وَجَعُ الْغِيَابِ 368 .
- وَتَيْنُ الْقَلْبِ 377 .
- حُبُّ يُشْبِهُ الْعِرَاقَ 385 .

399	اِقْتِحَامُ الْعَالَمِ
417	الْقَبَابُ الذَّهَبِيَّةُ
431	الكَاطِمِيَّةُ مَقَامُ الرُّوحِ
447	سِيرَةُ مَوَاقِفِ
469	نَشِيدُ الْأَحْلَامِ
485	مَا بَعْدَ الْحَبْرِ
499	صَدْرُ الْمُؤَلَّفِ
503	المَحْتَوَيَات

